غي دو موباسان

الهورلا

ستّة نصوص فانتستيكية

Telegram:@mbooks90

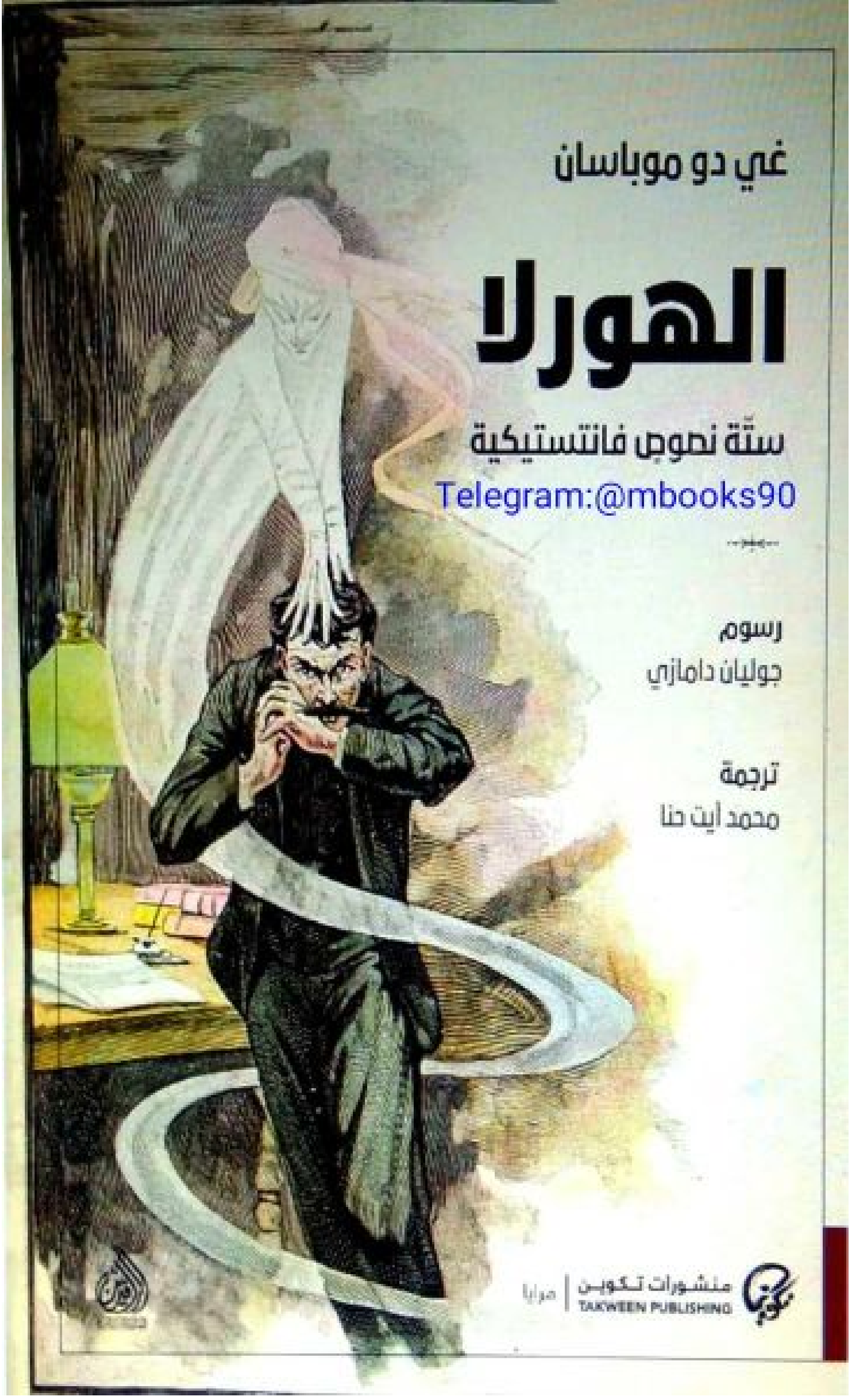

رسوم
جوليان دامازي

ترجمة
محمد آيت حنا

منشورات تكوين | هولندا
TAKWEEN PUBLISHING

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقديم

لو كان لي أن أختار عنواناً لهذه المجموعة، غير عنوان الهورلا، لاخترت عنواناً يعبّر عن عمليّة الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، كـ «التحوّل» مثلاً. أمّا التّجنيس فقد اخترته وكنت لأحتفظ به في جميع الأحوال «نصوص فانتستيكية». لماذا نصوص فانتستيكية؟ ولماذا التحوّل؟

لا أدري هل حقاً قرأت هذا الكلام عند بورخيس، أم أنّ ذهني اخترعه رابطاً حبالَ القراءات بين هذا وذاك، لكن لا شكّ عندي في أنّ بورخيس يعتبر موباسان «الحالة الأدبية» الأكثر تعبيراً عن أدب الفانتستيك (الأدب الغرائبيّ، مع نسبية هذه الكلمة وعدم استيفائها معاني الفانتاستيك كاملةً) (1)، أكثر حتّى من كافكا نفسه. لطالما تجنّب الكاتب الأرجنتيني (بحسّه الشّهير النَّفورِ من التّعريفات والحدود) وضْع تعريفٍ لأدب الفانتستيك، لكنّه يقدّم إحدى أهمّ التّنظيرات عن هذا الأدب في حوارٍ مع إيريتا إستر فاسكيز عبر سرد موضوعاته المختلفة. موضوعاتٌ يكادُ يستوفيها موباسان كلّها في قصصه. ولسنا هنا بالطّبع في مقامٍ تنظيريّ لأدب الفانتستيك، غير أنّه يهمّني على وجه التّخصيص التّشديد على سمة مميّزة لهذا الأدب، وهي توتّره بين عالَمي الواقع والفانتازيا، فإذا كان قارئ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأدب الفانتازي يدرك منذ البداية أنّه منكبٌّ على قراءة نصّ ينتمي إلى عالمٍ خياليّ مفارقٍ، غير عالمه الواقعيّ، إنّ النّص الفانتستيكي، يجعلنا نعيش التوتّر بين العالمين، فلا نحن في عالمٍ واقعيّ أحداثه «ممكنة»، ولا نحنُ في عالم فانتازيّ أحداثه ومخلوقاته مصنوعةٌ مبتكرة. لهذا فإنّ الشعور الملازم لقراءة النّصوص الفانتستيكية هو القلق، قلق التوتّر بين عالمين.

نقدّم للقارئ هنا ستّة نصوص لموبّسان، «الهورلا» أشهر نصوصه، وأردفناها بصيغتها الأولى، حتّى يقف القارئ على تطوّر النّص وتكوّنه، ثمّ «رسالة من رجلٍ ممسوس»، وفيها لا نستشف ملامح نصّ الهورلا فحسب، وإنّما نتلمّس جانباً من حياة موباسان نفسه، ونهايته المأساوية في مصحّ الأمراض العقلية بعدما تمكّن الزهريّ من دماغه.

ثمّ بعد النّصوص الثلاثة الأولى، نصوص ثلاثة أخرى لا تقلّ عنها أهميّةً وارتباطاً بموضوعنا، نصوص «طيف»، و«اللّيل» و«ضوء القمر». النّصوص السّتة جميعاً تعدُّ من أجمل وأكمل ما كتبه المؤلّف الفرنسيّ، وتتّخذ لها موضوعاً توتّر التحوّل أو اضطراب التنقّل من حالٍ إلى حال. باختيارنا هذه الأعمال، وبتقديمنا النّصوص مرفقة بمجوعة صورٍ كلاسيكية، لا نأمل فقط أن نقدّم للقارئ نموذجاً من أعمال موباسان وأدب الفانتستيك، وإنّما أيضاً كتاباً بهجةً للنّظر.

محمد آيت حنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Telegram:@mbooks90

بورتریه مویاسان

تصویر نادار (غاسبار فیلیکس تورناشون)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهورلا

يليه:

الهورلا، صيغة أولى؛ ورسالة من رجلٍ ممسوس؛ وطيف؛ فاللّيل؛ ثمّ ضوء القمر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهورلا (2)

٨ مايو: يا له من نهار رائع! قضيتُ الصّباحَ كلَّه ممدّداً على العشب أمام بيتي، أسفلَ شجرة الدلب العظيمة التي تغطيه وتحجبه وتظلّله بالكامل. أعشق هذا البلد، وأحبّ العيش به لأنّ جذوري ضاربةٌ فيه، تلك الجذور

العميقة والشديدة التّشابك التي تربط المرءَ بالأرض التي شهدت ميلادَ أجداده وموتهم، وتربطه بالفكر والمأكل، بالعادات والأطعمة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالعبارات المحلّية، بلكنة الفلاّحين، ورائحة الأرض، بالقرى وبالهواء نفسه.

أحبّ منزلي حيث نشأت وترعرعت. من نوافذه ألمح نهر السّين يجري، على امتداد حديقتي خلف الطّريق، كأنّه يجري في بيتي: نهرُ السّين العظيم العريض الذي يمتد من مدينة رُوان حتّى مدينة لوهافر، تملأه المراكبُ العابرة (3).

إلى اليسار ثمّة رُوان، تلك المدينة الرحبة ذات الأسقف الزرقاء المأهولة بشَعْبٍ من الأجراس القوطيّة. إنّ عدد تلك الأجراس لا يحصى، وهي إمّا صغيرةٌ وإمّا عظيمةٌ، تهيمنُ عليها قبّةُ الكاتدرائيّةِ المسنّنةُ، وتملؤها الجلاجلُ (4) التي تدقُّ في الأجواء الزرقاء للصباحات الجميلة، فيتناهى حتّى سمعي رنينُها الحديديّ العذب والبعيد، وغناؤها البرونزيّ الذي يحمله إليّ النّسيم، تارةً قوياً وطوراً واهناً، بحسب ما إذا كانَ هذا الغناءُ يستيقظ أو يأخذه الوسن.

يا له من صباح رائع!

حوالي الساعة الحادية عشرة، مرّ من أمام سياج بيتي موكبٌ طويلٌ من السُّفن، تقودُه باخرةٌ ضخمةٌ كعبّارةٍ، وكانت تحشرجُ مُجهدةً وتُفرزُ دخاناً كثيفاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعدما مرّت سفينتان إنجليزيتان من ذوات الصّاريَيْن، عَلَمُهما الأحمر يرفرف في السّماء، أتى الدّور على سفينة برازيلية رائعةٍ من ذوات الصّواري الثلاثة، شديدة البياض، نظيفة بشكلٍ يثير الإعجابَ وبرّاقة. ولست أدري لمَ لوّحتُ إليها محيّياً، لفرط ما أبهجني النّظر إليها.

١٢ مايو: حرارتي مرتفعة منذ أيّامٍ؛ أشعر أنّني أعاني، أو بالأحرى أشعر أنّني حزين.

من أين تأتي هذه التأثيرات الغامضة التي تقلِبُ سعادتَنا إلى إحباطٍ وثقتَنا إلى ضيقٍ؟ يبدو أنّه الهواءُ، الهواء اللاّمرئيّ المفعم بقوىً مجهولة تفرض علينا جوارَها الغامضَ. أستيقظ مُفعماً بالحبور، حنجرتي تسكنُها الرّغبة في الغناء. -لماذا؟- أنزل النّهرَ متجوّلاً؛ ثمّ، بغتةً، وبعد جولةٍ قصيرة، أؤوب منزعجاً كأنّما تنتظرني مصيبة بالبيت. -لماذا؟- هل هي رعشة بردٍ تحتكّ بجلدي، فتوتّر أعصابي وتَغُمّ نفسيَ. أهيَ أشكالُ هذه الغيوم، أم لونُ هذا النّهار، وألوان الأشياء الشديدة التّباين، وقد مرّت أمام ناظريَّ، فاضطربَ لها فكري؟ هل نعرفُ كلّ ما يحيط بنا؟ إنّ كلّ ما ننظر إليه دون أن نراه، وكلّ ما نحتكّ به دون أن ندركه، وكلّ ما نلمسه دون أن نمسّه، وكلّ ما نصادفه دون أن نميّزه، يفعلُ فعله في أعضائنا، وعبرها يؤثّر في أفكارنا، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلبنا نفسه، يؤثّر في كلّ ذلك تأثيراً سريعاً ومذهلاً ومتعذّرَ التفسير.

ما أعمقه من لُغزٍ، لُغز اللامرئيّ! لا نستطيع أن نسبر غوره بحواسنا البئيسة: عيوننا التي لا تقدر أن تدرك الأشياء البالغة الصّغر ولا الأشياء البالغة الكبَر، كما لا تقدر أن ترى الأشياء القريبة جداً ولا الأشياء البعيدة جداً، فلا هيَ تستطيع أن تلمح سكّان نجمٍ ولا سكّان قطرة ماء... وآذاننا التي تخدعنا إذ تنقلُ لنا ذبذباتِ الهواء في شكل نوتاتٍ صوتية. إنّهن جنيّات، هنّ اللّواتي يقمن بتلك المعجزة، معجزة تحويل تلك الحركة إلى صوت، وعبر ذلك التّحوّل تولد الموسيقى التي تقلب صخب الطّبيعةِ الصّامتَ إلى غناءٍ... وحاسّة شمّنا الأضعف من نظيرتها عند الكلب... وحاسّة ذوقنا التي بالكاد تستطيع أن تستبين عمُرَ نبيذٍ!

آه! لو أنّنا كنّا نملك أعضاء أخرى تعيننا على إنجاز معجزات أخرى، كم من الأشياء كنّا لنكتشفها حولنا!

١٦ مايو: أنا مريض، لا شكّ في الأمر! كنت الشّهرَ الماضيَ على ما يرام! أنا محموم، حمّى فظيعة، أو بالأحرى أنا متوتّر توتّراً محموماً، يعذّب روحي كما يعذّب جسدي! يلازمني الإحساس المخيف

بوجود خطرٍ يتهدّدني، التّوجس من مصيبة قادمة أو من الموت الذي يدنو منّي، هذا الشّعور المنذر، الذي هو بلا ريب نتيجة الإصابة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمرض ما يزال مجهولاً، مرضٍ يينع في الدّم والجسد.

١٨ مايو: عدت للتوّ طبيباً لأنّي ما عدتُ أستطيع النّومَ. ألفى نبضي سريعاً، وعيني زائغة، وأعصابي مهزوزة، لكن من دون

وجود أيّ أعراض مقلقة. عليّ أن ألجأ إلى الاستحمام(5)، وأن أشرب بروميد البوتاسيوم.

٢٥ مايو: لم يحدث أيّ تغيير! إنّها حقّاً حالة غريبة. ما إن يقترب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المساء حتّى يجتاحني قلق غير مفهوم، وكأنّما يُخفي الليل لِيَ خطراً رهيباً. أتعشّى سريعاً، ثمّ أحاول القراءةَ؛ بيد أنّي لا أفهم الكلمات، بالكاد أستطيع تمييز الحروف. أذرع إذّاك غرفتي طولاً وعرضاً، تضطهدني خشيةٌ غامضة لا سبيل إلى مقاومتها، خشية أن أنام، خشية أن آوي إلى فراشي.

حوالي السّاعة العاشرة أصعد إلى غرفتي. وما إن أدلف إليها حتّى أدير المفتاح مرّتين وأغلق الأقفال؛ أنا خائفٌ... ممّ؟... حتّى الآن ما كنت أخشى شيئاً... أفتح دواليبي، أنظر أسفل سريري؛ أصيخ السّمع... أصيخ السّمع... إلى ماذا؟ هل من الغريب أن يؤثّر توعّك بسيط، اضطرابٌ في الدّورة الدّموية ربّما، أو تهيّجُ ليفٍ عصبيّ، أو احتقانٌ بسيط، خلل بسيط في سير التنا الحية، ذلك السيّر البالغ النّقص والشّديد التّعقيد، قلتُ، هل يمكن أن يؤثّر على رجلٍ فيقلب حاله من أشدّ الرّجال حبوراً إلى رجلٍ سوداويّ المزاج، ويجعل من أشدّ البواسلِ شخصاً رعديداً؟ ثمّ، آوي إلى فراشي، وأنتظر النّوم كأنّما أنتظر الجلاّد، أنتظره بقدومه المرعب، وقلبي يدقّ، وقدمايَ ترتعدان، وجسدي كلّه يرتجف تحت حرارة الأغطية، إلى أن تحين اللّحظة التي أهوي فيها فجأةً في السّكينة، كمن يهوي ليغرقَ في حوض ماء فاتر. لا أشعر به قادماً، كما كان يحصل في الزّمن الذي مضى، لا أشعر بهذا النّوم الغادر الذي يكمن بقربي رابضاً يتربّص بي، كي يمسك بي

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من رأسي ويقفل عينيّ، ويقوّض كياني.

أنام -طويلاً- ساعتين أو ثلاثاً- ثمّ يلفّني حلم -كلاّ- كابوسٌ. أحسّ فعلاً أنّني مضطجع وأنّني نائم... أحسّ بذلك وأعلمه... وأشعر أيضاً بأحدهم يقترب منّي، يحدّق فيّ ويجسّني، يصعد إلى سريري ويجثو على صدري، يمسك رقبتي بين يديه، ويطبق الخناق عليها... يطبق... بكامل قوّته ليخنقني.

وأنا، أصارع، مقيّداً بذاك العجز الفظيع الذي يشلّ حركتنا أثناء الحلم؛ أريد أن أصرخ، -لا أستطيع-؛ أريد أن أنتفض، -لا أستطيع-؛ أحاول، لاهثاً وباذلاً جهوداً مروّعة، أن أتقلّب وأُبعد هذا الكائن الذي يسحقني ويخنقني، -لا أستطيع-!

ثمّ فجأةً، أستيقظ، ذاهلاً، يغمرني العرق. أوقد شمعةً. وألفي نفسي وحيداً.

بعد هذه المحنة التي تتكرّر كلّ ليلة، أنام أخيراً، في هناءة، حتّى الفجر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢ يونيو: ازدادت حالتي سوءاً. ما الذي أصابني؟ لم يفد البروميد في شيء؛ ولا أفادت الحمّامات. أحياناً، لأُتعب جسدي، المنهك أصلاً، كنت أقصد غابة رومار في جولة. خِلتُ أنّ الهواء المنعش، الهواء الخفيف اللّطيف، المفعم بأريج الأعشاب والأوراق، سيضخّ دماءً جديدة في عروقي وطاقة جديدة في قلبي سلكت ممرّ صيدٍ واسعاً، ثم انعطفت ناحية قرية لابْوِي، عبر ممشىً ضيّق، بين صفّي جيشٍ من الأشجار ذات علو غير متناسق، والتي كانت تَضرب سقفاً أخضر سميكاً، يكاد يكون أسودَ، بيني وبين السّماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تملّكتني فجأة رعشةٌ، ولم تكن رعشةَ بردٍ، وإنّما رعشة قلقٍ غريبة.

حثثت الخُطى، متوجّساً من وجودي بمفردي في الغابة، هلِعاً دون سبب يذكر، ببلاهة، من العزلة التّامة. بغتةً خُيِّلَ إليّ أنّي ملاحَقٌ، أنّ ثمّة من يتعقّبني، يحاذيني عن قرب حتّى يكاد يلامسني.

استدرت فجأة. كنت وحدي. لم أرَ أمامي إلا الطريقَ المستقيمةَ الواسعةَ فارغةً، أعلاها فارغٌ فراغاً مفزعاً، ومن الجهة المقابلة كانت الطريق أيضاً تنبسط على مدِّ البصر، فارغةً ومفزعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أغمضتُ عينيّ. لماذا؟ وبدأت أدور على عقبيّ بسرعة مثل خذروفٍ. كدت أسقط. فتحت عينيّ؛ كانت الأشجار تتراقص، والأرض تمور؛ اضطررت إلى الجلوس؛ ثمّ، آه! ما عدت أذكر من أينَ أتيت! خاطرة عجيبة! عجيبة! خاطرة عجيبة! ما عدت أعرف شيئاً. انطلقت من جانبي الأيمن، فرجعت إلى الطريق التي قادتني إلى وسط الغابة.

٣ يونيو: كانت اللّيلةُ رهيبةً. سأغيب أسابيعَ. لا ريب في أنّ سَفراً قصيراً من شأنه أن يشفيني.

٢ يوليو: عدت إلى بيتي. لقد شفيت. لقد قمت، بالمناسبة، بجولة لطيفة. زرتُ جبل سان-ميشال(6) الذي ما كنتُ أعرفُه.

يا له من منظر ذاك الذي يستقبل الواصلين، مثلي، إلى بلدية أفرانش قُبَيلَ الغروب! تقع المدينة فوق هضبة؛ اصطحبوني إلى الحديقة العمومية، أقصى المدينة. وهناك ندّت عنّي صيحةُ عجب. كان ثمّة جَوْنٌ(7) شاسع ينبسط أمامي على امتداد البصر، ما بين ضفّتين متباعدتين، ويختفي بعيداً في الضّباب. وسط ذلك الخليج الأصفر الشّاسع، وتحت سماءِ الذّهب والضياء، ينتصبُ، غامضاً ومدبّباً، جبلٌ عجيب بين الرّمال. كانت الشّمس قد غربت للتّو، وعلى الأفق الذي كان ما يزال وهّاجا، كانت ترتسم هيئةُ تلك الصّخرة العجيبة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحمل على قمّتها صرحاً عجيباً.

ما إن بزغ الفجرُ حتّى قصدتُه. كان البحر في حالة جَزْر، مثل أمس مساء. وبقدر ما كنت أقترب كنت ألمح الدّير المذهل ينتصب أمامي. وبعد ساعات من المشي بلغتُ الجلمود الهائلَ الذي يحمل البلدة الصغيرة التي تهيمن عليها الكنيسة الكبيرة. وإذ ارتقيت الطّريقَ الضيّقة المختصرة، ولجت إلى أروع بيت قوطيّ بُنِيَ للربّ على الأرض، كان فسيحاً مثل مدينة، ومليئاً بالغرف الواطئة التي تئنّ تحت قباب وأروقة عالية تسنُدُها أعمدةٌ واهية. دخلت إلى تلك الجوهرة العظيمة المقدودة من حجر الصوّان، والخفيفة كثوب دانتيلا، التي تملؤها البروج والذُرى النّحيلة، التي تقود إليها سلالم ملتوية، وتُطلق في سماء النّهار الزرقاء، وسماء اللّيل السّوداء، رؤوسها العجيبة على هيئة كِمّيرات(8)، وشياطين ومخلوقات عجيبة، وزهور مهولة، وتربط فيما بينَها أقواسٌ دقيقةٌ منقوشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين بلغتُ القمّةَ، قلت للرّاهب الذي كان يرافقني: «أبتِ، يا للهناءة التي تنعم بها هنا!».

أجابني: «الرّيح شديدة هنا يا سيّدي»، وانخرطنا في الحديث بينما نتأمّل المدّ البحريّ الذي صار يغمر الرّمال ويغطّيها كتُرس فولاذيّ.

وحكى لي الرّاهب قصصاً، حكى قصص هذا المكان القديمة جميعها، وكلّها أساطير، ولا شيء غير الأساطير.

إحدى تلك القصص أدهشتني كثيراً. يزعم أهل البلد، سكّان الجبل، أنّهم يسمعون ليلاً كلاماً ينبعث من الشاطئ، ثمّ يتناهى إليهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثغاء عنزتَين، إحداهما صوتُها مرتفع، بينما صوت الأخرى خفيضٌ. يؤكّد المتشكّككون على أنّ تلك الأصوات ما هي سوى صيحات طيور البحر التي تبدو تارةً مثل ثغاء، وطوراً مثل شكوى بشرية؛ بيد أنّ الصيّادين الذين يعودون في وقت متأخّر يقسمون بأنّهم قد سبق لهم أن صادفوا، بين مدٍ بحريّ وجزر، راعياً مسنّاً يطوف بين الكثبان الرملية، حول المدينة الصغيرة المعزولة عن العالم. لم يرَ أحدٌ قطّ وجه الرّاعي الذي يغطّي رأسَه بمعطفه، والذي يسوق خلفه جَدْياً له وجه رجلٍ وعنزةً بوجه امرأة؛ لكليهما شعر أبيض طويل، ولا يكفّان عن الكلام متخاصمَيْن بلغة مجهولة. ثمّ يتوقّفان بغتةً عن الصراخ، ويشرعان في الثغاء وُسْعَ طاقتِهما.

سألتُ الرّاهب: «أوَ تؤمنُ في صحّة ذلك؟»، فأجاب مغمغماً: «لستُ أدري».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استطردتُ: «إذا ما كان ثمّة على الأرض كائنات أخرى غيرنا، كيف لم نتعرّف عليها حتّى الآن؟ كيف لم تَرها أنت؟ كيف لم أرَها أنا؟».

أجاب: «وهل نرى الجزء من الألف في الأشياء الموجودة؟ وهاكَ الرّيحَ، التي هيَ أعظمُ قوى الطّبيعة، القوّةُ التي تطوِّح بِبَني البشر، وتدكّ الحصونَ، وتقتلع الأشجار، وتصنع من مياه البحار جبالاً، وتهدم الجروف، وتحطّم الجواريَ الكبيرةَ؛ هذه الرّيح التي تقتل وتصفّر وتعوي وتزأر، هل سبق لك أن رأيتها، وهل بوسعك ذلك؟ ورغم ذلك هي موجودةٌ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخمني استدلاله على بساطته. هذا الرّجل حكيم، أو لعلّه أحمق. لم أوافق كلامه تماماً، بيد أنّي صمتُّ. ما كان يقوله، كان قد سبق لي أن فكّرت فيه مراراً.

٣ يوليو: كان نومي سيّئاً. لا ريب في أنّ ثمّة عدوى محمومة تستشري في الأرجاء، لأنّ حوذيَّ يعاني نفسَ علّتي. عندما عدت أمس إلى البيت لاحظت شحوبه الفريدَ. سألته:

«ما بك يا جون؟

- ما عدت أرتاح سيّدي، إنّ ليالِيَ تلتهم نُهُري. منذ أن سافر سيّدي لازمني الأمر كلعنة».

على الرّغم من أنّ باقي الخدم لا يعانون من شيء، بيد أنّي أخشى أن يعاودني الأمر.

٤ يوليو: لقد عاودني الدّاء قطعاً. عاودتني كوابيسي القديمة. هذه الليلة شعرت أنّ أحداً يجثو فوقي، ويضع فمه على فمي، ثمّ يمتصّ حياتي من بين شفتيَّ. أجل، لقد كان يمتصّها مثل حنجرة عبر حنجرتي. ثمّ قام عنّي بعدما أُتخِمَ، واستيقظتُ أنا مثخناً ومكسوراً ومحطّماً، لدرجة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنّي ما كنت أستطيع الحركة. إذا ما استمرّ الأمر أياماً أخرى، فلا شكّ في أنّي سأعود إلى السّفر.

٥ يوليو: هل فقدتُ صوابي؟ ما حدث ليلة أمس غريب جداً، لدرجة أنّ رأسي يتوه كلّما فكّرت فيه!

كنت قد أغلقت عليّ الباب بالمفتاح، على غرار ما صرت أفعل كلّ ليلةٍ؛ ثمّ إذ أحسست بالعطش، شربت نصف كأس ماء، ولاحظت صدفةً أنّ كوز الماء كان ممتلئاً حتّى غطائه الكريستالي.

ثمّ هجعت متهاوياً في نومةٍ من نيماتي المروّعة، وما لبثْتُ أن استلتني من رقدتي هزّةٌ أشدّ رعباً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخيّلوا رجلاً يُغتال أثناء نومه، ويستفيق فيجد سكيناً مغروسة في رئته، يحَشرج مضمّخاً بدمائه، وما به قدرةٌ على التّنفس، يوشك أن يموت، ولا يفهم ما يجري له. هوَذا ما رأيتُه.

وإذ استعدتُ صوابي، عطشت مجدّداً؛ أوقدت شمعة وقصدت الطّاولة حيث وُضِع كوز الماء. حملته، وحين أملتُه على كأسي، لم تسقط منه قطرة - كان فارغاً تماماً! لم أستوعب الأمر في البداية؛ ثمّ أحسست، فجأةً، بشعور رهيب لدرجة أنّي جلست، أو بالأحرى تهاويت على مقعدي! ثمّ هببت واقفاً لأنظر حولي! وبعد ذلك جلست، وقد اجتاحني الذّهول والخوف أمام مشهد الكريستال الشّفاف! أخذت أحدّق فيه بنظرات ثابتة، ساعياً إلى أن أخمّن ما جرى. يدايَ ترتجفان! شُرِبَ الماءُ إذن؟ من الذي شربه؟ أنا؟ أنا بلا شك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يمكن أن يكون قد شربه أحدٌ غيري! أنا إذن مسرنمٌ، أعيش، دون أن أدري، تلك الحياة المزدوجة التي تجعلنا نعتقد في أنّ ثمّة كائنان يعيشان معاً فينا، أو أنّ كائناً مجهولاً وخفيّاً يحرّك جسدنا من حين إلى آخر، حين تفقد النّفس وعيها، فيخضع الجسدُ الأسيرُ إلى ذاك الكائنِ مثلما يخضع لنا، لا بل يخضع له أكثر ممّا يخضع لنا نحن.

آه! من ذا الذي بوسعه أن يفهمَ قلقي الشّنيعَ. من ذا الذي بوسعه أن يدرك شعور رجلٍ، سليم العقل، متيقّظٍ كلّ التيقّظ، حصيف، ينظرُ مذعوراً عبر زجاج كوز إلى قليل من الماء الذي اختفى بينما كان نائماً! بقيت هناك حتّى طلع النّهار دون أن أجرؤ على العودة إلى فراشي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٦ يوليو: بدأت أفقد صوابي. لقد شُربَ ماءُ كوزي اللّيلة الماضية أيضاً، أو بالأحرى شربته!

لكن، هل أنا حقاً؟ هل أنا؟ من إذن؟ من؟ أوه! يا إلهي! أكاد أجنّ! من ذا الذي سينقذني؟

١٠ يوليو: مرّت عليّ تجاربُ رهيبة.

لا ريب في أنّي قد جننت! ومع ذلك!

يوم ٦ يوليو، وضعت، قبل أن أنام على الطّاولة خمراً وحليباً وماءً، وخبزاً وفراولة.

شُربَ -شرِبْتُ- الماء، وقليلاً من الحليب. ولم يُمسّ الخمر أو الخبز أو الفراولة.

ويوم ٧ يوليو، أعدت التّجربة مرّة أخرى، وحصّلت على النّتيجة نفسها.

ويوم ٨ يوليو، لم أضع الماء والحليب، فلم يُمسَّ شيء.

ويوم ٩ يوليو، وضعت على الطّاولة ماءً وحليباً فقط، بعدما غلّفت الكوزَين بثوب موصليّ أبيض وربطت السّدادتين. ثمّ نثرت على شفتيَّ ولحيتي ويديّ بُرادة الرّصاص، وهجعت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدركني النّوم الذي لا يقهر، وما لبث أن لحق به الاستيقاظُ الفظيع. لم أتزعزع أثناء نومي، حتّى أنّ أغطيَتي نفسها لم تكن تحمل أثراً للحركة. هرعت إلى الطّاولة. ظلّ الثّوب الذي يغلّف القنّينتين نقياً. فككت الرّباط وأنا أرتعد رعباً. لقد شُرِبَ الماءُ كلّه! شُرب الحليب كلّه! آه! يا إلهي!...

سأرحل فوراً إلى باريس.

١٢ يوليو: باريس. كنت قد فقدت عقلي إذن في الأيام الماضية! وقعت ضحيّة خيالي المتعَب، إلا في حال ما إذا كنت مسرنماً، أو إذا ما كنت قد خضعت لواحدة من تلكَ العمليات الشائعة التي ما زالت إلى الآن غير قابلة للتّفسير، تلك التي تسمّى إيحاءً. على كلّ حالٍ، إنّ ذعري يكاد يبلغ الجنونَ. على أنّ أربعاً وعشرين ساعةً في باريس كانت كافية لأستعيد رباطة جأشي.

أمس، بعد أن قمت بالتّسوق وبعض الزّيارات التي أمدّت روحي بهواء جديد منعش، أنهيت الأمسية بالمسرح-الفرنسي. كان المسرح يعرض مسرحيّة للكاتب ألكساندر دوما الابن (9)؛ وانتهى المطاف بذلك الذهن المتيقّظ القويّ إلى أن عالجني. لا ريب في أنّ العزلة خطيرة علينا نحن الذين نُعمِل أذهانَنا. يلزم أن نكون محاطين بأناس يفكّرون ويتحدّثون. حين ننعزل لفترات طويلة، نؤثّث الفراغَ بالأشباح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدت إلى الفندق، عبر الأزقّة، جذِلاً. وأثناء احتكاكي بالحشود كنت أفكّر، دون أن يخلو تفكيري من تهكّم، في مخاوفي وفي الظّنون التي تملّكتني الأسبوع المنصرم، إذ كنت قد اعتقدت، أجل كنت قد اعتقدت في أنّ كائناً لا مرئيّاً يعيش تحت سقف بيتي. يالهشاشة عقلنا وكم يتملّكه الرّعب ويضيع ما إن يصيبنا حدثٌ متعذّر الفهم!

بدلاً من أن يخلص المرء إلى هذه الكلمات البسيطة: «لست أفهمُ الأمر، لأنّي أجهل سببه»، فإنّه سرعان ما يبدأ في توهّم عجائب مرعبة وقوىً غير طبيعيّة.

١٤ يوليو: اليوم عيد الجمهورية. تجولت في الشّوارع. أبهجتني المفرقعات والأعلام كما قد تُبهج طفلاً. مع أنّه من الغباء أن يفرح المرء في تاريخ محدّد بقرار حكوميّ. إنّ الشّعب قطيع غبيّ، تارةً يصبر ببلادة وطوراً يثور رغماً عن إرادته. يُقال له: «امرح»، فيمرح. يُقال له: «حارب جيرانك»،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيذهب إلى الحرب. يقال له: «صوِّت للإمبراطور»، فيصوّتُ للإمبراطور. ثمّ يقالُ له: «صوِّت للجمهوريّة» فيُصوِّت للجمهوريّة.

وأولئك الذين يوجّهون الشعب لا يقلّون عنه سخفاً، غير أنّهم بدلاً من الخضوع إلى أناسٍ، فإنّهم يخضعون إلى مبادئ؛ مبادئ لا يمكن أن تكون، من حيث هيَ مبادئ، إلاّ مغفّلةً وعقيمةً وخاطئةً؛ مبادئ أي مجموعة من الأفكار التي يتمّ اعتبارها موثوقةً وثابتةً، في هذا العالِم حيث لا شيء مؤكّدٌ، ما دام الضوء وهماً، ومادام الصوت وهماً.

١٦ يوليو: شَهدتُ اليومَ أشياء زعزعت كياني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعشّيت عند ابنة عمّي، مدام سابلي، زوجة قائد فرقة القنّاصة ٧٦ بمدينة ليموج. ألفيت نفسي هناك صحبة امرأتين شابّتين، إحداهما زوجة الدكتور بارون، الذي يهتمّ كثيراً بالأمراض العصبيّة والظواهر الخارقة التي صارت اليومَ موضع تجارب التنويم المغناطيسي والإيحاء.

حدّثنا الدكتور بارون باستفاضةٍ عن النتائج المذهلة التي حقّقها العلماء الإنجليز وأطبّاء مدرسة نانسي.

بدت ليَ الوقائع التي يدّعيها شديدة الغرابة لدرجة أنّي أفصحت عن تشكّكي التّام.

قال مؤكّداً: «إنّنا على وشك كشف الغطاء عن أحد أهمّ أسرار الطبيعة، أقصد أحد أهمّ الأسرار على هذه الأرض؛ إذ لا ريب في أنّ ثمّة ألغازاً أخرى أهمّ بكثير هناك في النّجوم. منذ أن بدأ الإنسان في التّفكير، منذ أن تعلّم التعبير عن فكره قولاً وكتابةً، وهو يحسّ نفسه في تماسٍ مع لغزٍ مستعص على حواسّه الفظّة والمجبولة على النّقص، ويحاول أن يعوّض بملكاته الفكريّة نقصَ أعضائه. وعندما كانت تلك الملَكات ما تزال في حالة بدائيّة، كان هاجسُ الظواهر غير المرئيّة يتجلّى في أشكال مخيفة تافهة. من هنا ولدت المعتقدات الشعبية عن الخوارق الطبيعيّة: أساطير الأرواح الهائمة، والجنيّات، والعفاريت، والعائدين من الموت، بل أستطيع أن أضيف حتّى أسطورة الرّب،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاك أنّ تصوّرنا عن خالقٍ مبدعٍ، ذاك التّصور الذي نستقيه من بعض الأديان ما هو سوى محض افتراء من أحطّ ما افترته عقول الكائنات الخائفة. ولا شيء أصدق من عبارة فولتير: «لقد خلق الله الإنسان على صورته، لكنّ الإنسانَ عرف كيف يردّ له هذا الجميلَ».

«لكن، منذ ما يزيد على القرن بقليل، بدأنا نستشعر شيئاً جديداً. لقد وضعَنا مِسْمير(10) وآخرون على درب لم نتوقّعها، وتوصّلنا بالفعل، خاصّة منذ أربع سنواتٍ أو خمس، إلى نتائج مذهلة».

كانت ابنة عمّي، وهي المتشكّكة أيضاً، تبتسم. قال لها الدّكتور بارون: «هل ترغبين في أن أنوّمك مدام؟

- أجل، أرغب في ذلك حقاً».

جلست على أريكة، وبدأ يحدّق فيها مثبتاً بصره محاولاً تنويمَها مغناطيسياً، وفجأةً أحسستُ بعض الاضطراب يتملّكني، أخذ قلبي يخفق، واختنق حلقي. ورأيتُ أنّ عينَي مدام سابلي بدأتا ترتخيان، وفمها يتشنّج، وصدرها يلهث.

وما هي إلاّ عشر دقائق حتّى كانت مدام سابلي غارقةً في النّوم.

قال لي الطّبيب: «اِجلس خلفها».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجلست خلفها. وضع بين يديها بطاقة صغيرةً قائلاً: «إنّها مرآةٌ، ماذا ترَين فيها؟».

أجابت:

«أرى فيها ابن عمّي.

- ماذا يفعل؟

- يفتل شاربه.

- والآن؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يُخرج من جيبه صورة فوتوغرافيّة.

- صورة من؟

- صورتُه».

كانت محقّة! وكنت قد استلمت تلك الصورة في المساء نفسه، بالفندق.

- «كيف يبدو في هذه الصّورة؟

- يقف حاملاً قبّعته بيده».

لقد كانت ترى إذن في تلك البطاقة، في قطعة الكرتون تلك، كأنّها تنظر في مرآة.

قالت الشّابتان، وقد تملّكهما الرّعب:

«كفى! كفى! كفى!».

لكن الدكتور واصلَ مُصدراً أمراً: «ستستيقظين غداً في الثامنة صباحاً، ثمّ ستذهبين لرؤية ابن عمّك بالفندق، وسترجّينَه أن يقرضك خمسةَ آلاف فرنك يريدها منك زوجك وسيطالبك بها في سفره القادم».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمّ أيقظها.

وإذْ عدتُ إلى الفندق، فكرت في تلك الجلسة الغريبة فتملّكتني الشّكوك. لم أشكّ شكاً مطلقاً، أي في صدق سريرة ابنة عمّي التي كانت لي، منذ الطّفولة، كالأخت، وإنّما في إمكان أن يكون الطبيب محتالاً. فلعلّه كان يحمل بيده مرآة يبرزها للشّابة النّائمة في الآن نفسه الذي يريها فيها البطاقة؟ إنّ محترفي الشعوذة يقومون بأشياءَ شديدة الفرادة.

عدتُ إذن إلى غرفتي، ونمت.

على أنّ خادم الفندق أيقظني هذا الصّباح، حوالي السّاعة التاسعة، قائلاً:

«إنّها السيّدة سابلي، تطلب مقابلتك حالاً يا سيدي».

ارتديتُ ملابسي على عجلٍ واستقبلتها.

جلسَت وقد أخذ منها الاضطرابُ كلّ مأخذ، وبعينين خفيضتين، ودون أن ترفع غطاء وجهها قالت:

- «يا ابن عمّي العزيز، أريد أن أسألك معروفاً كبيراً.

- أيّ معروف يا بنة عمّي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يزعجني أن أقول لك هذا، لكنّي مضطرةٌ. أنا في أمسّ الحاجة إلى خمسة آلاف فرنك.

- ماذا تقولين؟ أنت؟

- أجل أنا، أو هو بالأحرى زوجي الذي طلب منّي أن أدبّرها».

أصابني الذهول حتّى صرتُ أتمتم إجاباتي. تساءلت حقاً عمّا إذا كانت تهزأ منّي هي والدّكتور بارون، عمّا إذا كان الأمر مجرّد مقلبٍ قد دُبّر سَلفاً وتمّت تأديته بإحكام.

لكن ما إن أمعنت فيها النّظر حتّى تبدّدت شكوكي جميعها. كانت ترتعد قلقاً، لفرط ما كان الوضع يؤلمها، وأدركتُ أنّ حلقها يختنق عويلاً.

كنت أعلم أنّها فاحشة الثراء، فاستأنفت كلامي:

«كيف! ألا يملك زوجك خمسة آلاف فرنك! هيّا، فكّري جيداً. أوَ متأكّدةٌ أنت من أنّه قد كلّفك بأن تسألينيها؟».

ترددَت لحظةً كأنّما احتاجت جهداً كبيراً لتنقّب في ذاكرتها، ثمّ أجابت:

«أجل...، أجل... إنّي متأكّدة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل راسلك كتابةً؟

تردّدت مرّة أخرى متفكّرةً. وخمّنت الجهد الموجع الذي يبذله فكرُها. لم تكن تعرف. كلّ ما كانت تعرفه هو أنّ عليها أن تقترض منّي خمسة آلاف فرنك لزوجها. لهذا جرؤَت على الكذب.

«أجل، لقد كاتبني.

ومتى فعل؟ أنتِ لم تخبريني شيئاً، أمس.

- لقد تلقّيت رسالته هذا الصّباح.

- هل تستطيعين أن ترينيها؟

- كلاّ... كلاّ... كلاّ... إنّ بها أشياء حميمية... أشياء شخصيّة جداً... لقد... لقد أحرقتها.

- زوجك إذن يستدين».

تردّدت مرّة أخرى، ثمّ غمغمت:

«لستُ أدري».

قلت لها دون مقدّمات:

«الواقع أنّي لا أملك خمسة آلاف فرنك في هذا الوقت».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أطلقت صرخةَ ألمٍ:

«أوّاه! أوّاه! أتوسّل إليك، أتوسّل إليك، تدبّرها...».

هاجت، وضمّت يديها كأنّما تتوسّلني! وسمعت نبرة صوتها تتغيّر. كانت تنشج وتتمتم، مدفوعة ومسلوبة الإرادة أمام الأمر الذي لا سبيل إلى مقاومته، الأمر الذي تلقّته.

«أوّاه! أوّاه! أتوسّل إليك... لو تعلمُ كم أعاني... أحتاج تلك النقود هذا اليوم».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشفقت عليها.

«ستحصلين عليها بعد حين، أعدك».

صاحت متهلّلة:

«أوه! شكراً لك! شكراً لك! ما أطيبك!».

استطردتُ:

«هل تذكرين ما حدث أمس في بيتك؟

- أجل.

- تذكرين أنّ الطّبيب بارون قد نوّمك؟

-أجل.

- وإذن، لقد أمرك بأن تأتي إليّ هذا الصّباح فتطلبي منّي أن أقرضك خمسة آلاف فرنك، إنّك الآن خاضعة لتأثير ذاك الإيحاء».

فكّرَت لحظاتٍ ثمّ قالت:

«ما دام زوجي هو من يطلبها».

قضيت ساعةً أحاول إقناعها، لكنّي لم أستطع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين انصرفت، هرعت إلى الدّكتور. كان يتأهّب للخروج؛ واستمع إليّ مبتسماً. ثمّ قال:

«هل اقتنعت الآن؟

- أجل، لا بدّ لي من التّصديق.

- هيّا بنا إلى بيت قريبتك».

كانت ترقد أصلاً على مصطبة طويلة، وقد هدّها التّعب. جسّ الطّبيب نبضها، حدّق فيها لحظةً رافعاً إحدى يديه أمام عينيها اللّتين انغلقتا شيئاً فشيئاً تحت تأثير تلك القوّة المغناطيسيّة المتعذّرة مقاومتها.

وحين نامت قال لها:

«لم يعد زوجك بحاجة إلى خمسة آلاف فرنك. اِنسي إذن أنّك قد رجوت ابن عمّك أن يقرضك إيّاها، وإذا ما حدّثك في الأمر فلن تفهمي ما يقصد».

ثمّ أيقظها. وأخرجت من جيبي حافظة نقودٍ:

«هاك يا بنت عمّي ما أتيت تسألينِيه هذا الصّباح».

استبدّت بها الدّهشة حتّى أنّي لم أجرؤ على أن ألحّ في الأمر. على أنّي حاولت أن أنعش ذاكرتها، لكنّها أنكرت بشدّه، ظانّةً أنّي كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهزأ منها، وكادت أن تغضب في نهاية المطاف.

.....

هوَذا! لقد عدت إلى غرفتي منذ قليل؛ ولم أستطع أن أتناول غذائي، لفرط ما صدمتني تلك التجربة.

١٩ يوليو: الكثيرُ ممّن حكيت لهم واقعتي، سخروا منّي. لم أعد قادراً على استيعاب الأمر. وقال الحكيم: ربّما؟

٢١ يوليو: تعشّيت في مدينة بوجيفال، ثمّ قضيت أمسيتي في تياترو كانوتييه. حتماً، الأماكن والفضاءات هي المحدّد لكلّ شيء. أن يصدّق المرء، على جزيرة غرونوبير، بوجود الخوارق، فذاك قمّة الجنون... أمّا على قمّة جبل سان مشيل؟... أمّا في الجزر الهنديّة؟ إنّنا نخضع، على نحو مرعب، للمؤثرات المحيطة بنا. سأعود إلى بيتي الأسبوعَ القادم.

٣٠ يوليو: عدتُ إلى بيتي منذ أمس. كلّ شيء على ما يرام.

٢ غشت: لا جديد؛ الطّقس رائع. أقضي أيامي أتابعُ نهر السّين يجري.

٤ غشت: نشبت خصومات بين الخدم. يدّعون، أنّ الكؤوس تكسَر ليلاً في خزاناتها. الخادم يتّهم الطّاهية، التي تتّهم الغسّالة، التي تتّهمهما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معاً. من الفاعل؟ من يبلغ من النّباهة حدّ أن يعرف!

٦ غشت: هذه المرّة، أنا على يقين من أنّني لست مجنوناً. لقد رأيت... رأيت... رأيت!... لا يسعني بعدُ أن أرتاب... لقد رأيت! ... ما زالت البرودة تتملّكني من رأسي إلى قدميّ. وما زال الخوف يستبدّ بي حتّى النّخاع... لقد رأيت!

كنت أتجوّل في الثّانية ظهراً، في روضتي، تحت الشّمس الساطعة ... في ممشى ورود الخريف التي بدأت تزهر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذ توقّفت أتأمّل شجيرة دفلى (11) تحمل ثلاث أزهار رائعة، رأيت، رأيت بوضوح، على مقربة منّي، ساق إحدى الزّهرات تنثني، كأنّما لوتها يدٌ خفيّة، ثمّ انكسرت، كأنّما قطفتها تلك اليدُ! ثمّ ارتفعت الزهرة، متّبعة مساراً منحنياً مثل ذلك الذي قد ترسمه يدٌ تحملها نحو فمٍ، وبقيت معلّقة في الهواء الشّفيف، بمفردها، ساكنةً، بقعة حمراء مرعبة على بعد ثلاث خطواتٍ من ناظري.

ذَاهِلاً، ارتميتُ عليها لأمسكها! لم أُصِبْ شيئاً؛ كانت قد اختفت. تملّكني غضبٌ جارفٌ من نفسي؛ إذ لا يحقّ لرجلٍ حصيفٍ وجادٍ أن يخضع لمثل تلك الهلاوس.

لكن، أوَ كان الأمرُ حقاً هلوسةً؟ استدرتُ باحثاً عن ساق الزّهرة، ووجدتها فوراً على الشجيرة، مكسورةً حديثاً، بين الزّهرتين الأخريين اللّتين ما تزالان على الغصن.

إذاك عدتُ إلى بيتي بنفس منكسرةٍ، لأنّي الآن صرتُ متيقّناً، متيقّناً قدرَ يقيني بتعاقب اللّيل والنّهار، أنّ كائناً خفياً يوجد بقربي، كائناً يقتات من الحليب والماء، كائناً يستطيع أن يلمس الأشياء، وأن يأخذها ويحوّلها من مكانها، كائناً يحوز تبعاً لذلك طبيعةً مادية، ولو أنّه يتعذّر على حواسنا إدراكه، كائناً يسكن مثلي، تحت سقف بيتي...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٧ غشت: نمتُ هانئاً. لقد شربَ ماءَ جرّتي، لكنّه لم يزعج نومي البتّة.

أتساءلُ عمّا إذا كنتُ مجنوناً. بينما أتجوّل، أحياناً في وضح النّهار، على امتداد النّهر، ساورتني الشّكوك حول سلامة عقلي. ولم تكن شكوكاً مبهمةً، من قبيل الشكوك التي ساورتني حتّى الآن، وإنّما شكوكاً واضحة، لا جدالَ فيها. سبق أن رأيت حمقى. عرفتُ من بينهم من يظلّ ذكياً وحصيفاً، بل ونافذ البصيرة إزاءَ كلّ أشياء الحياة، ما عدا شيئاً واحداً. يتحدّثون بوضوحٍ ومرونة، وعمق، وفجأةً إذ يبلغ فكرهم شرَكَ جنونهم، يتمزّق إلى قطع، يتناثرُ ويغرق في ذاك المحيط المرعب المصطخب، المليء بالأمواج الهادرة والضّباب والزوابع، ذاك المحيط المسمّى «الجنون».

لا ريب في أنّي كنت لأحسبَ نفسي مجنوناً، مجنوناً حقاً، لولا أنّي واعٍ، لولا أنّي ملمٌّ تماماً بحالتي، لولا أنّي أسبرها محلّلاً إياها بكاملِ الصّفاء الذّهنيّ. لستُ إذن في المحصّلة، سوى مهلوس عاقلٍ. لقد حدث في دماغي أحد تلك الاضطرابات المجهولة، التي يحاول الفزيولوجيّون اليومَ تسجيلها وتشخيصها؛ وقد أحدث ذاك الاضطرابُ في عقلي، في نظام أفكاري ومنطقها، صدعاً عميقاً. تحدثُ ظواهر مشابهة في الأحلام التي تقودنا عبر الأوهام والخيالات، دون أن يفاجئنا الأمر، لأنّ آلة الرّقابة، ومنطق المراقبة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكون نائماً، في حين تظلُ ملكةُ الخيال ساهرةً تشتغل. أوَ لا يمكن أن يكون أحد الأزرار الدّقيقة جداً على لوح مفاتيح دماغي قد تعطّلَ؟ يحدثُ أن يفقد أناسٌ، عقبَ حادثة، ذاكرةَ أسماءِ الأشخاص أو الأفعالِ أو الأرقام، أو فقط التواريخ. إنَّ باحات التفكير جميعها صارت اليوم أمراً مؤكّداً. فما العجب إذن في أن تكون ملكة ضبط لا معقولية الهلوسات قد تعطّلت عندي في هذه الفترة!

كنت أفكّر في كلّ تلك الأمور وأنا أسير محاذياً ضفّة الماء. وكانت الشّمس تغمر النّهرَ ضياءً، وتصبغ الأرض بهاءً، وتملأ نظرتي حباً للحياة، لطيور السّنونو، التي تبهج خفقاتُ أجنحتها عينيّ، ولعشب الضفاف الذي يسعدُ أذنيّ حفيفُه.

على أنّ قلقاً غير مفهوم بدأ يداخلني رويداً رويدا. بدا لي أنّ قوّةً، قوّة غامضة تخدّرني، توقفني، تمنعني من التّقدّم أبعد، وتشدّني إلى الخلف. تملّكتني تلك الحاجة الموجعة في العودة إلى البيت، الحاجة التي تتملّك المرء حين يكون قد ترك في المنزل مريضاً عزيزاً على قلبه، فيتملّكه الإحساس بأنّ مرضه قد تفاقم.

عدت إذن إلى بيتي رغماً عنّي، موقناً بأنّي سأجد في انتظاري خبراً سيئاً، رسالةً أو برقيّة. لم يكن ثمّة شيء، وبقيت ذاهلاً وقلِقاً أكثر ممّا لو أنّي رأيت مجدّداً إحدى تلك الرؤى العجيبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٨ غشت: قضيتُ أمس ليلة فظيعةً. ما عاد يعلن عن نفسه، لكنّي أحسّه قريباً منّي، يراقبني، ينظر إليّ، يتغلغل فيّ، يسيطر عليّ، والأدهى أنّ اختباءه هذا أكثر مدعاةً للخوف من لو أنّه كان يعلن بظواهر خارقة عن حضوره الخفيّ الدّائم.

ومع ذلك، نمتُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩ غشت: لم يحدث شيء، لكنّي خائف.

١٠ غشت: لم يحدث شيء، ما الذي يخبّئه الغد؟

١١ غشت: ما زال لم يحدث شيء، لم أعد قادراً على أن أبقى في بيتي مع هذه الخشية وهذا القلق اللّذين توغّلا في نفسي، سأرحل.

١٢ غشت، العاشرة مساءً: طيلة النّهار وأنا راغبٌ في الرّحيل، لكنّي لم أستطع. أردت أن أقوم فقط بهذا الفعل الحرِّ الشديد السّهولة: أن أخرج -أن أركب عربتي وأقصد رُوان- لكنّي لم أستطع أن أفعل. لماذا؟

١٣ غشت: عندما تصيبنا بعض الأمراض، تبدو كلّ نوابض البدن مُضعضَعةً، كلّ القوى مدمَّرة، كلّ العضلات متداعيةً، تصير العظام رخوة كاللّحم واللّحم سائلاً كالماء. أعاني وطأةَ ذلك على كياني النّفسي بشكلٍ غريب ومحبِط. ما عدت أملك أيّ قوّة، أيّ عزيمة، أيّ سيطرة على نفسي، أيّ قدرة حتّى على التّحكم في إرادتي، ما عدت قادراً على أن أريد، وإنّما ثمّة من يريد لي، وأنا طوع أمره.

١٤ غشت: لقد ضعت! أحدهم يتملّك روحي ويتحكّم فيها! أحدهم يوجّه أفعالي كلّها، وحركاتي كلّها، وأفكاري كلّها. ما عدت أملك من أمر نفسي شيئاً، ما أنا سوى متفرّجٍ مستعبَدٍ ومرعوبٍ من كلّ

Page 45 / 132

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء أُقدم عليه. أرغب في الخروج، فلا أستطيع. هو لا يريد، فأبقى بالبيت، ضائعاً، أرتجف على أريكتي حيث يبقيني جالساً. أرغب فقط في أن أقوم، في أن أقف، كي أوهم نفسي بأنّي سيّدها. لا أستطيع! أنا موثّق إلى مقعدي ومقعدي ملتصق بالأرض، بحيث لا قوّة تستطيع أن ترفعنا.

ثمّ، فجأةً، أقرّر: يجب، يجب، يجب أن أذهب أقصى حديقة بيتي لأجتنيَ قليلاً من الفراولة وآكلها. وبالفعل أذهب. أقطف بعض الفراولة وآكلها! أوّاه! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي! أوَ ثمّةَ إلهٌ؟ إذا كان ثمّة إلهٌ، فليخلّصني، أنقذني يا إلهي! أنجدني! أسألك المغفرة! الرّحمة! الخلاص! أنقذني يا إلهي! أوّاه! يا له من ألم! يا له من عذاب! يا لها من فظاعة!

١٥ غشت: لا ريب في أنّ هذه هي الشّاكلة التي كانت بها ابنة عمّي مسلوبةً ومسيّرةً حين أتت تسألني أن أقرضها الخمسة آلاف فرنك. كانت تخضع لإرادة غريبة تسلّلت إلى دواخلها، كأنّها روح أخرى، روح طفيليّة مهيمنة. أ هيَ نهاية العالم؟

لكنْ، هذا الذي يتحكّم فيّ، هذا الخفيّ، من يكون؟ هذا المجهول، هذا المتربِّص الذي ينتمي إلى جنسٍ فوق-طبيعيّ.

الرّجال اللامرئيّون إذن موجودون بالفعل! لمَ إذن لم يفصح أحد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهم عن نفسه، منذ بدء الخليقة، بشكلٍ قاطعٍ مثلما يحدث الآن معي؟ لم يسبق لي أن قرأت شيئاً مماثلاً لما حصل في بيتي. واهٍ! فقط لو أستطيع أن أرحل عنه، لو أستطيع الذّهاب من هنا، لنجوت بنفسي، لكنّني لا أستطيع.

١٦ غشت: استطعت اليوم أن أفلتَ لساعتين، مثل سجينٍ يجد باب زنزانته مفتوحاً صدفةً. شعرتُ أنّي قد تحرّرت بغتةً، وأنّه بعيدٌ عنّي. أمرتُ بتجهيز العربة سريعاً، وقصدت رُوان. أوه! يالها من بهجةٍ، أن يكون بمقدور المرء أن يأمر رجلاً يطيعه: «إلى رُوان!».

توقّفت أمام المكتبة، وطلبت منهم أن يعيروني رسالة الدكتور هرمان هيريستاوس الكبيرة حول السّكان المجهولين بالعالمين، القديم والحديث.

ثمّ، إذ صعدت إلى عربتي، أردت أن أقول: «إلى المحطّة!»، لكنّني صرخت -لم أقُل وإنّما صرختُ- بصوت مرتفع حتّى أنّ المارّة قد استداروا نحوي: «إلى البيت!»، وتهاويت على مقعد عربتي، مضطرباً من القلق. لقد وجدني، واستعاد سيطرته عليّ.

١٧ غشت: يا لها من ليلة! يا لها من ليلة! ومع ذلك، يبدو لي أنّ عليّ أن أبتهج. فحتّى السّاعة الواحدة صباحاً وأنا أقرأ. قرأت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتاب هرمان هيريستاوس، الدكتور في الفلسفة والثيولوجيا، الذي دوّن تاريخ وتجليّات جميع الكائنات التي تجول حول الإنسان، أو تلك التي حلم بها. لقد بيّن أصولها، ومواطنها، وقدراتها. بيد أنّ لا واحد منها يشبه ذاك الذي يسكنني. يبدو أنّ الإنسان، منذ أن شرع في التّفكير، وهو يرقب ويخشى كائناً جديداً، أقوى منه، كائناً هو خليفته في هذا العالم. وإذ أحسّ به قريباً ولم يكن بوسعه أن يحدّد طبيعة سيّده ذاك، فقد اخترع، في خضمّ رعبه، كلّ ذاك الشَعْب الرّائع من الكائنات العجيبة: أشباحٌ مبهمةٌ هي بناتُ خوفه.

وإذ قرأت إذن حتّى الواحدة صباحاً، ذهبت لأجلس قرب النّافذة المشرعة حتّى أنعش جبيني وفكريَ في ريح الظلام الهادئة. كان الجو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميلا، ودافئاً! كم كنت لأعشقَ، فيما مضى، مثل هذه اللّيلة!

غاب القمر. كانت النّجوم، في كبد السّماء المظلم، تضيء مرتعشة. من يعيش في تلك العوالم؟ أيّ أشكال للحياة هناك، أيّ كائنات حيّة، أيّ حيوانات، أيّ نباتات؟ وأولئك الذين لديهم ملكة التّفكير، هناك في تلك العوالم، ما الذي يعرفونه أكثر منّا؟ ما الذي يستطيعونه أكثر منّا؟ ما الذي يرونه ممّا لا نعرفه البتّة؟ أوَ لن يعبر أحدهم الفضاء ذات يومٍ، ويظهرَ على الأرض غازياً، مثل النورمانديين الذين كانوا فيما مضى يعبرون البحر لاستعباد شعوبٍ أضعف منهم؟

ونحن، بني البشر، من العجز بمكان، عزّلٌ تماماً، وبالغو الجهل، وشديدو الضآلة، على حبّة الطّين هذه التي تدور ذائبةً فوق قطرة ماء.

غارقاً في تلك الخيالات غفوت في هواء المساء المنعش. على أنّي، بعدما نمت حوالي أربعين دقيقة، فتحت عينيّ دون أن تندّ عنّي أيّ حركة، إذ أيقظني شعورٌ مضطربٌ غامضٌ لستُ أدري كُنهَه. لم أتبيّن شيئاً أوّل الأمر، لكن فجأةً بدا لي أنّ صفحةً من صفحات كتابي الذي تركته مفتوحاً قد قُلبت وحدها. لم تهبّ من النّافذة أيّ نفحة ريح. دهشتُ، ولبدت مترقّباً. وما هي سوى أربع دقائق حتّى رأيتُ، رأيتُ، أجل رأيتُ بأمّ عيني ورقة أخرى ترتفع ثمّ تهوي فوق سابقتها، كأنّما قلّبتها أصبع. أريكتي كانت فارغة، كانت تبدو فارغةً،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنّي أدركت أنّه كان هناك، هو، جالساً في موضعي، وأنّه كان يقرأ. وبقفزة هائجة، قفزة وحش ثائر، يريد بقْرَ أحشاء مرِوّضه،

عبرتُ غرفتي سعياً إلى الإمساك به، إلى إصابته، إلى قتله!... بيد أنّ مقعدي انقلب قبل أن أبلغه، كأنّما هرب منّي أحدهم... تأرجحت طاولتي وسقط مصباحي منطفئاً، ثمّ انقفلت نافذتي كأنّما باغتُّ أحد اللّصوص فقفز في الظلام محكماً غلق مصراعَيّ النّافذة خلفه.

لقد هربَ إذن، لقد خافَ، خافَ منيّ، هوَ!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذن... وإذن... غداً... أو بعد غد... أو يوماً ما... سيكون بمقدوري أن أمسكه بقبضتي وأسحقَه أرضاً! أوَ لا يأتي حينٌ على الكلاب تعضّ فيه أسيادها وتخنقهم؟

١٨ غشت: فكّرت في الأمر طيلة النّهار. بلى، سأكون له مطيعاً، سأتبع نزواته، وأنفّذ ما يريد، سأجعل من نفسي خانعاً، خاضعاً، جباناً. فهوَ الأقوى. لكنّ يوماً لا محالة آتٍ...

١٩ غشت: الآن صرت أعرف... صرت أعرف... صرت أعرف كلّ شيء! لقد قرأت لتويّ ما يلي، في مجلّة **العالم العلمي**: «أتانا من ريو دي جانيرو خبرٌ غاية في الغرابة. موجة جنون، وباء جنون، أشبه ما يكون بموجات الجبل المعديّة التي كانت تجتاح شعوب أوروبا في القرون الوسطى، تستشري الآن في ضواحي ساو باولو. السكّان ذاهلينَ يتركون منازلهم، يهجرون قراهم، يتخلّون عن مزَارِعهم، بدعوى أنّهم ملاحقون، مسلوبون، مسيّرون مثل قطيع بشريّ من طرف كائنات خفيّة وإن كانت محسوسة، ضربٌ من مصّاصي الدّماء الذين يقتاتون على حيواتهم، والذين يبدو أنّهم يشربون الماء والحليب دون أن يمسّوا أيّ غذاء آخر.

«لقد توجّه السيّد البروفسور دون بيدرو هنركيز، مرفوقاً بعدد من العلماء الأطبّاء، إلى منطقة ساو باولو حتّى يدرس، بعين المكان،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعراض هذا الجنون المروّع، ويقترح على الإمبراطور التدابير التي يراها مناسبة لاستعادة السّاكنة رشدها».

بلى! بلى! إنّي لأذكر تلك السّفينة الثلاثية الصواري البرازيليّة الجميلة التي عبرت نهر السيّن في الثامن من مايو المنصرم! لقد بدت لي آيةً في الجمال والبياض والمرح! لقد كان الكائن على متنها، قادماً من هناك، من أرض بني جنسه! ولمحني! ورأى بيتي الأبيض أيضاً، وقفز من المركب إلى الضّفة. أوّاه! يا إلهي!

الآن بِتّ أدرك الأمرَ، صرت أتنبّأ. لقد انتهت مملكة الإنسان.

لقد أتى ذاك الذي كانت تتوجّس من قدومِه أولى مخاوف الشّعوب الفطريّة، ذاك الذي كان القساوسة القلقون يصرفونه بالتّعاويذ، ويستحضره السّحرة في اللّيالي المعتمة، دون أن يتجلّى لهم بعدُ؛ ذاك الذي خلعت عليه هواجسُ معلّمي العالم العابرينَ كلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأشكال الفظيعة أو اللّطيفة، أشكال الأقزام والأرواح والعفاريت والجنيّات؛ وبعد التّصوّرات الفظيعة التي كوّنها عنه رعبُ البدائيّين، تمكّن ذوو بصائر أكثر صفاءً من أن يستشعروه بصورة أوضحَ.

لقد حدسَه مسمير، وكان الأطباء، قبله بعشر سنين، قد استطاعوا الكشف، بصورة دقيقة، عن طبيعة قوّته، قبل حتّى أن يمارس هو نفسه تلك القوّة. لقد لعبوا بسلاح سيّدِ العالم الجديد، أقصد سلاحَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السّيطرة على النّفس البشريّة التي صارت عبداً. لقد سمّوا ممارسَتَهم مغنَطَةً، تنويماً، إيحاءً... وما لا أدري من أسماءَ! ولقد رأيتُهم يلهون كأطفال طائشين، بتلك القوّة المرعبة! يالشقائنا! يالشقائنا نحن بني البشر! لقد وصل، الـ... الـ... ماذا عسايَ أن أسميه... الـ... أحسب أنّه يصرخ فيَّ باسمِه، لكنّي لا أسمعه... الـ... أجل... إنّه يصرخُ باسمه... إنّي أسمعه... لا أستطيع... أعِد... الهورلا (12)... لقد سمعتهُ... الهورلا... إنّه هو... الهورلا... لقد وصل!...

أوّاه! لقد التهم العقابُ الحمامةَ؛ افترسَ الذئبُ الحملَ؛ التهم الأسد الجاموسَ ذا القرنَين الحادّين؛ قتل الإنسان الأسدَ بواسطة الرّمح، والسّيف والبارود؛ بيد أنّ الهورلا سيصنع بالإنسان ما صنعه الإنسانُ نفسه بالخيل والبقر؛ سيجعل منه مملوكه وخادمه وطعامه، متسلّحاً في ذلك بالإرادة لا غير. بِئسَ المصير!

Telegram:@mbooks90

ومع ذلك، قد يعرض للحيوان أن يتمرّدَ ويقتل مُرَوِّضَهُ... وأنا أيضاً أرغب في ذلك... أستطيع ذلك... لكن ينبغي أن أعرِفَه، أن ألمسه، أن أراه! يقول العلماء إنّ عيون الحيوانات، المختلفة عن عيوننا، لا تميّز الأشياء على النّحو الذي نميّزها به... وعيناي أيضاً لا تستطيعان إبصار هذا القادم الجديد الذي يضطهدني.

لماذا؟ أوه! أتذكّر الآن كلمات الرّاهب في جبل سان-ميشال: «وهل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نرى الجزء من الألف في الأشياء الموجودة؟ وهاكَ الرّيحَ، التي هيَ أعظمُ قوى الطّبيعة، القوّة التي تطوّح ببني البشر، وتدكّ الحصون، وتقتلع الأشجار، وتصنع من مياه البحار جبالاً، وتهدم الجروف، وتحطّم الجواريَ الكبيرةَ؛ هذه الرّيح التي تقتل وتصفّر وتعوي وتزأر، هل سبق لك أن رأيتها، وهل بوسعك ذلك؟ ومع ذلك هيَ موجودة!».

وفكّرتُ أبعدَ: إنّ عيني من الضعف والنّقص بمكان، حتّى أنّي لا أستطيع رؤيةَ الأجسام الصلبة، إذا ما كانت شفّافةً، شأنَ الزجاج!... وحتّى أنّ قطعة زجاجٍ غير مطليّة تعوق طريقي، سأصطدم بها، مثلما يصطدم بزجاج النّوافذ عصفورٌ تسلّل إلى غرفة. وفضلاً عن ذلك، ثمّة آلاف الأشياء الأخرى التي تخدع عيني وتضلّها. ما العجب إذن في أن تعجز عن إدراك جسمٍ جديد، جسمٍ يخترقه الضوءُ.

كائن جديد! لمَ لا؟ كان آتياً لا محالة! لمَ علينا أن نكون نحن آخرَ الكائنات! إنّنا عاجزون تماماً عن تمييزه، شأنُنا شأن من سبقنا من كائنات. ذاك أنّ طبيعتَه أكمل، وجسمه أشدّ رهافة ودقّة من أجسامنا، أجسامِنا نحنُ الشّديدة الضّعف، والمشكّلة تشكيلاً في غاية السّوء، أجسامنا رُكامُ الأعضاء المتعبَة على الدّوام، المجهدة أبداً كأنّها نوابض بالغة التّعقيد، أجسامنا التي تحيا مثل نبتةٍ أو حيوانٍ، محكومة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حكماً شاقاً بالاعتياش على الهواء والنّبات واللّحم، أجسامنا تلك الآلات الحيوانيةُ التي تظلّ نَهْبَ الأمراض والتّشوهات والتّعفنات، أجسام هشّةٌ وغير مضبوطة، بدائيّة ومغربة، سيئةُ الخلق على نحوٍ مُبدع، تلك الصّنعة الفظيعة والمعقّدة، [ما هيّ إلاّ] مسودّة كائنٍ كان من الممكن أن يكون ذكياً ورائعاً.

نحن مجموعة من الكائنات تعمر هذا العالم، بدءاً من المحارة إلى الإنسان. ما المانع إذن من أن يُضافَ إلينا واحدٌ آخرُ، ما إن تكتمل الدّورة التي تفصل الظهور المتعاقب لكلّ الكائنات المتنوّعة؟

ما المانع من أن يُضافَ إلينا واحدٌ آخرُ؟ ما المانع من أن تظهر أشجارٌ أخرى، أشجار ذات أزهار عملاقة مبهرة يغطي أريجها أقاليم بأكملها؟ ما المانع من أن يكون ثمّة عنصرٌ آخر غيرَ النّار والهواء والتّراب والماء؟ إنّها أربعة، أربعة لا غير، تلك العناصر التي هي بمثابة الأُمّات التي تغذّي كلّ الكائنات. يا للبؤس! لمَ ليست أربعين، أو أربعمائة، أو أربعة آلاف! كم هو فقير كلّ شيء، ووضيعٍ وبئيس! كلّ شيء ممنوحٌ بتقتيرٍ ومخلوق بفظاظةٍ ومصنوعٌ ببلاهة. آه! الفيل وفرس النّهر، يا لَرقّتهما! ويا لَأناقة الجمل! ستقولون لي: وما قولك في الفراشة! تلك الزّهرة الطائرة! إنّي لأحلم بفراشةٍ تكون من الكبر بحيث تساوي مائة من الأكوان، بأجنحة لا أقدر حتّى على وصف شكلها وجمالها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وألوانها وحركتها... بيد أنّني أراها... أراها تنتقل بين النّجوم، تنعشها وتعطّرها بخفقِ مسيرها المتناغمِ الخفيف!... وشعوبُ الأعالي هناك تتابع مرورها بسعادة وانتشاء!

.....

ما الذي حلّ بي إذن؟ إنّه هو، هو، الهورلا، يتلبّسني، ويدفع بي إلى التّفكير في هذه الحماقات! إنّه بداخلي، لقد صار روحي؛ سأقتله!

١٩ غشت: سأقتله. لقد تمكّنتُ من رؤيته! كنت أمس جالساً إلى طاولتي؛ أتظاهر بأنّني أكتب بانتباه بالغ. وكنت على يقين من أنّه سيأتي ليحوم حولي، سيقترب منّي جداً، سيقترب منّي غاية الاقتراب، حتّى يكون بوسعي أن ألمسه، أن أمسكه؟ وماذا بعد ذلك! ... بعد ذلك، سأحوز قوّة اليَائسين؛ سأتوسّل بيديّ وركبتيّ وصدري وجبهتي وأسناني لخنقه، لسحقه، لعضّه، لتمزيقه.

وأخذت أرقبه بكامل جوارحي المتحفّزة.

كنت قد أوقدت مصباحيَّ كليهما، وأيضاً شموع مدفأتي الثمانية، وكأنّما بوسعي أن أكشفه وسط هذا النّور.

قبالتي سريري، سريرٌ عتيقٌ مصنوع من خشب السّنديان؛ وعلى يميني مدفأتي؛ وعلى يساري بابي المقفل بعناية، بعدما كنت قد تركته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مفتوحاً مدّةً طويلةً قصدَ استدراجه إلى الدّخول؛ وخلفي دولاب عظيمٌ بمرآةٍ أستعين بها كلّ صباحٍ في حلاقة ذقني وارتداء ملابسي، وكانت لي عادةُ أن أنظر فيها إلى نفسي كلّما مررت أمامها من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ.

وإذن، كنتُ أتظاهر بالكتابة، لأنّه هو أيضاً كان يراقبني؛ وفجأةً أحسست، [بل] كنت متأكّداً من أنّه كان يقرأ من فوق كتفي، كان هناك، يكادُ يلامسُ أذني.

قمت واقفاً، بذراعين مفتوحتين، واستدرت بسرعةٍ كدتُ معها أن أسقط. وإذن؟... كان بالإمكان الرّؤية بوضوح كما لو أنّنا في وضح النّهار، ومع ذلك لم أشاهد نفسي في مرآتي!... كانت المرآة فارغةً، صافية، عميقةً، مفعمةً بالنّور! لم تكن صورتي تنعكس فيها... مع أنّي كنت أقف قبالتها! كنت أنظر إلى قطعة الزّجاج الصّافية من أعلاها إلى أسفلها. وكنت أنظر إلى ذلك بعينين ذاهلتين؛ وما كنتُ أجرؤ على التّقدّم، ما كنتُ أجرؤ على القيام بأيّ حركةٍ، مع أنّي كنت أحسّ فعلاً بأنّه كان هناك، لكنّه كان ما يزالُ يفلت منّي، هوَ الذي تمكّن جسدُه اللا مرئيّ من التهام انعكاس صورتي على المرآة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لَشدَّ ما تملّكني الرّعبُ! ثمّ ما لبثت بغتةً أن بدأت ألمح نفسي داخلَ ضبابٍ، في قلب المرآة، داخل ضبابٍ كمَن يلمح صورته على صفحة ماء؛ وكان يبدو لي ذاك الماء يرتجُّ من اليسار إلى اليمين، ببطءٍ، جاعلاً صورتي تتّضح أكثر فأكثر، ثانيةً بعدَ أخرى. كأنّما هي نهاية كسوفٍ. ما كان يحجب صورتي لم يكن يبدو أنّ له ملامحَ دقيقة، وإنّما فقط ضرباً من الشّفافية الكامدة الآخذة في التوضّح شيئاً فشيئاً.

ثمّ صار بوسعي أخيراً أن أميّز نفسي بالكامل، تماماً مثلما يحدث كلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صباحٍ حين أنظر إلى نفسي في المرآة.

لقد رأيته! سكنني الرّعبُ حتّى أنّي ما أزال أرتجف خوفاً.

٢٠ غشت: أقتله، كيف؟ ما دمت لا أستطيع النّيل منه؟ أدسُّ له سمّاً؟ سيراني وأنا أخلطه بالماء، ثمّ، هل سيكون لسمومنا من أثر على جسده اللا محسوس؟ كلاّ... كلاّ... لا ريب في ذلك... وإذن؟... وإذن؟...

٢١ غشت: استقدمتُ حدّاداً من رُوان، وطلبتُ منه أن يصنع بغرفتي كُوى حديدية، مثل تلك التي تضعها بعض الفنادق الخاصّة بباريس على طوابقها السّفلى، خشية اللّصوص. كما سيصنع لي، فضلاً عن ذلك، باباً مماثلاً. بدوتُ جباناً، بيد أنّي لا أكترث لذلك!..

Telegram:@mbooks90

.....

١٠ شتنبر: رُوان، فندق كونتيننتال! لقد تمّ الأمر... تمّ الأمر... لكن هل مات؟ نفسي مصدومةٌ لهَولِ ما رأيتُ.

أمس إذن، بعدما ركّب الحدادُ الكُوى والباب الحديديّ، تركتُ كلّ شيء مفتوحاً، حتّى منتصف اللّيل، مع أنّ الجو صار بارداً.

فجأةً شعرتُ بوجوده، فتملّكني الفرح، فرحٌ جنونيّ. نهضت ببطءٍ، ثمّ بدأت أذرع الغرفة يميناً ويساراً، مدّة طويلة، كي لا يحدسَ شيئاً،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمّ نزعت حذائي وارتديت نعلي دون عناية؛ ثمّ أقفلت كوّة الحديد، وقصدت الباب بخطى وئيدة، وغلّقته هو أيضاً. وعدتُ بعد ذلك إلى النّافذة، فأغلقتها بقفلٍ وضعتُ مفتاحه في جيبي.

بغتةً أدركتُ أنّه يتململ حولي، أنّه خائفٌ بدوره، وأنّه يطالبني بأن أفتح الباب. كدت أخضع؛ لم أخضع، وإنّما ملتصقاً بالباب واربتُه بحيث بالكاد يسمح لي أن أمرّ منه وأنا أتراجع بظهري؛ وإذ كنت ضخم القدّ، فقد لامس رأسي السّاكف(13). كنت على يقين من أنّه لم يستطع الهرب وأنّني تمكّنت من سجنه بمفرده، بمفرده. يا للفرح! أمسكت به! وإذّاك نزلت ركضاً، أخذت من الصّالون الواقع أسفل غرفتي مصباحَيَّ وهرقت كلّ ما كان فيهما من زيت على البساط والأثاث وفي كلّ مكان؛ ثمّ أضرمتُ النّار، وهربت، بعدما غلّقت بابَ المدخل الكبيرَ بالمفتاح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمّ قصدتُ حديقتي أختبئ فيها، بين باقة عظيمة من أزهار الغار. وكم مرّ الوقت بطيئاً! كم مرّ الوقت بطيئاً! كان كلّ شيءٍ مظلماً، صامتاً، جامداً، ولا هبّة ريح، ولا نجمة، [فقط] جبالٌ من الغيوم التي لا تُرى البتّة، لكنّها تثقلُ كاهلَ نفسي أيّما ثقلٍ، أيّما ثقل.

ظللت أراقب منزلي منتظراً. وكم

مرّ الوقت بطيئاً! كنت قد بدأت أحسب أنّ النّار قد انطفأت من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلقاء ذاتها، أو أنّه هو من أطفأها، فإذا بإحدى النّوافذ السّفلى تنفجر تحت ضغط النيران، فيندلع لهبٌ، لهبٌ عظيمٌ أحمر وأصفر، لهبٌ طويلٌ رخوٌ، صاعداً طولَ الجدار الأبيض يعانقهُ حتّى السّقف. انتشرَ وهجٌ بين الأشجار والأغصان والأوراق، كما سرت بينها رجفةٌ، رجفة رعب.

استيقظت العصافيرُ، عوى كلبٌ، وخيّل إليَّ أنّ الفجر يبزغ! وما لبثت أن انفجرت نافذتان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخريان، ورأيت أنّ أسفل منزلي كلّه لم يعُد سوى أتون نارٍ مرعبٍ. بيد أنّ صرخةً، صرخة مرعبةً، مفرطةَ الحدّة، مفجِعَةً، صرخة امرأةٍ مزّقت اللّيل، وانفتحت غرفتان من الغرف العلويّة! كنت قد نسيت أمرَ الخدم! رأيت وجوههم المرعوبة، وأذرعهم المهتاجة!...

وإذّاك، مذهولاً من الرّعب، ركضتُ صوبَ القرية صائحاً: «النّجدة! النّجدة! النّار! النّار!» التقيت أناساً كانوا أصلاً قادمين صوبَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيتي، فعدتُ أدراجي معهم كي أشهدَ ما سيحصل.

وكان المنزل آنذاك قد تحوّل [بأكمله] إلى مجرّد أتونٍ مهول ومرعبٍ، أتون هائلٍ ينيرُ الأرض بأكملها، أتون يحترق فيه أناسٌ، ويحترق فيه أيضاً هوَ، هو، سجيني، الكائنُ الجديد، سيّدُ [العالمِ] الجديدُ، الهورلا!

فجأةً تداعى السّقف كلّه وسط الجدران، وارتفع بركانٌ من اللّهب حتّى بلغ السّماء. وعبر النّوافذ المشرعة على هذا الأتون كلّها، كنتُ أنظرُ إلى الوعاء النّاريّ، وأفكّر في أنّه هناك، ميّتٌ داخل هذا الفرن.

«ميّتٌ؟ ربّما؟... جسدُه؟ جسدُه الذي كان يخترقه ضوء النّهار، أوليس يشذُّ عن الوسائل التي تدمّرُ أجسادنا؟».

«وإن لم يكن قد مات؟... لربّما كان الزّمن وحده من يستطيع أن يبسط سطوتَه على الكائن الخفيّ الخطير. ما جدوى هذا الجسد الشّفاف، هذا الجسد المجهول، جسد الأشباح، إن كان، هو أيضاً، يخشى الأمراض والإصابات والعلل والفناء المبكّر؟».

«الفناء المبكّر؟ هو أصل شقاء بني البشر كلّه! بعد الإنسان، جاء زمن الهورلا- بعد ذاك الذي قد يموت في أيّ يومٍ، وأيّ ساعة، وأيّ دقيقة، وبأيّ حادثةٍ، أتى ذاك الذي لن يموت إلا حين تحين ساعته الأخيرةُ، ودقيقته المضبوطة، لأنّه بلغ منتهى وجوده!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيتي، فعدتُ أدراجي معهم كي أشهدَ ما سيحصل.

وكان المنزل آنذاك قد تحوّل [بأكمله] إلى مجرّد أتونٍ مهول ومرعبٍ، أتون هائلٍ ينيرُ الأرض بأكملها، أتون يحترق فيه أناسٌ، ويحترق فيه أيضاً هوَ، هو، سجيني، الكائنُ الجديد، سيّدُ [العالِم] الجديدُ، الهورلا!

فجأةً تداعى السّقف كلّه وسط الجدران، وارتفع بركانٌ من اللّهب حتّى بلغ السّماء. وعبر النّوافذ المشرعة على هذا الأتون كلّها، كنتُ أنظرُ إلى الوعاء النّاريّ، وأفكّر في أنّه هناك، ميّتٌ داخل هذا الفرن.

«ميّتٌ؟ ربّما؟... جسدُه؟ جسدُه الذي كان يخترقه ضوء النّهار، أوليس يشذُّ عن الوسائل التي تدمّرُ أجسادنا؟».

«وإن لم يكن قد مات؟... لربّما كان الزّمن وحده من يستطيع أن يبسط سطوته على الكائن الخفي الخطير. ما جدوى هذا الجسد الشّفاف، هذا الجسد المجهول، جسد الأشباح، إن كان، هو أيضاً، يخشى الأمراض والإصابات والعلل والفناء المبكّر؟».

Telegram:@mbooks90

«الفناء المبكّر؟ هو أصل شقاء بني البشر كلّه! بعد الإنسان، جاء زمن الهورلا- بعد ذاك الذي قد يموت في أيّ يومٍ، وأيّ ساعة، وأيّ دقيقة، وبأيّ حادثةٍ، أتى ذاك الذي لن يموت إلا حين تحين ساعته الأخيرةُ، ودقيقته المضبوطة، لأنّه بلغ منتهى وجوده!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«كلاّ... كلاّ... هو لم يمُت، لا ريب في ذلك... هو لم يمتُ...
وإذن... إذن... ينبغي أن أقتل نفسي، أنا!...».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهورلا

(صيغة أولى) (14)

كان الدّكتور ماراند، وهو أشهر أطبّاء الأمراض العقليّة وأبرزهم، قد دعا ثلاثة من زملائه وأربعة علماء من المهتمّين بالعلوم الطّبيعيّة إلى قضاء ساعة عنده في المصحّ الذي يديره، حتّى يعرض عليهم حالة أحد مرضاه.

وما إن اجتمع أصدقاؤه حتّى قال لهم: «سأعرض أمامكم أغرب الحالات التي صادفتُها وأكثرها مدعاةً للقلق، حتّى أنّي لا أعرف ماذا أقول عن مريضي هذا، وسأتركه يتكلّم عن نفسه بنفسه». ثمّ قرع الدّكتور الجرس، فأدخل أحد المعاونين رجلاً شديد النّحول، نحيلاً نحول جثّة، نحولاً شبيها بذاك الذي يبدو على بعض المجانين الذين تنخرهم فكرةٌ من الفِكَر، ذاك أنّ الفكَرَ المريضة تفترس الجسد أكثر ممّا تفعل الحمّى أو يفعل السلُّ.

وبعدما ألقى التحيّة وجلس، قال:

- سادتي، إنّي أعلم لِمَ جُمعتُم هنا، وأنا مستعدٌ لأن أحكي لكم حكايتي، نزولا عند طلب صديقي الدّكتور ماراند. وقد كان يحسبني، لزمنٍ طويلٍ، مجنوناً. واليوم صار يشكّ في ذلك. وبعد حينٍ ستدركون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنّ عقلي يملك قدرَ ما تملكُه عقولكم من سلامة وحصافةٍ وتبصّر؛ وهذا لسوء حظّي وحظّكم وحظّ البشريّة جمعاء.

بيد أنّي أريد أن أبدأ بسرد الوقائع نفسها، الوقائع فحسب. وهي ذي:

أنا في الثانية والأربعين من عمري. لست متزوّجاً، ولديَّ ما يكفي من المال لأعيش في قدرٍ من البحبوحة. هكذا كنت أسكن في عقارٍ يقع على ضفّة نهر السّين، في بيسار، قربَ رُوان. أحبّ ممارسة القنص والصّيد. خلف منزلي، فيما وراء الصّخور الكبيرة المشرفة عليه، كانت تقع إحدى أجمل غابات فرنسا، أقصد غابة رومار؛ وأمامه أحد أجمل أنهار العالم.

منزلي رحبٌ، مصبوغٌ من الخارج باللّون الأبيض، جميلٌ وعتيقٌ، يتوسّطُ حديقةً كبيرةً مزروعةً بأشجار رائعةً تصلُ حتّى الغابة بعد أن تتسلّق الصّخور العظيمة التي حدّثتكم عنها قبل قليل.

يتألّف طاقم خدمي، أو بالأحرى كان يتألّف من حوذيّ، وبُستانيّ، وخادمٍ، وطبّاخة ومنظّفة كانت تضطلع في الآن نفسه بدور مدبّرة المنزل. كان جميع هؤلاء يقطنون بيتي منذ مدّة تتراوح بين عشر سنوات إلى ستّ عشرة سنةً، فيعرفونني حقّ المعرفة، ويعرفون بيتي، والنّاحية، وكلّ محيط حياتي. كانوا خدماً جيّدين وطيّبين. وهذا الأمر مهمّ بالنّسبة لما سأخبركم به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أزيد القولَ إنّ نهر السّين، الذي يجري على امتداد حديقتي، هو، كما تعلمون قطعاً، صالحٌ للملاحة حتّى رُوان؛ وإنّي ألمح كلّ يومٍ سفناً كبيرةً، إن شراعيةً أو بخاريّة، تعبره قادمةً من كلّ بقاع الدنيا.

ومنذ عامٍ مضى، [تحديداً] في الخريف الفائت، تملّكني فجأةً الشّعور بضيقٍ غريبٍ ومتعذّر التّفسير. اتّخذ في البداية شكلَ قلقٍ عصبيّ جعلني أنفق ليالي بأكملها مؤرّقاً، ومشدود الأعصاب بحيث أنّ أدنى صوتٍ كان كفيلاً بأن يجعلني أرتعد. مزاجي تعكّر. وصارت تنتابني نوبات غضبٍ فجائيّة لا تفسير لها. استشرت طبيباً فوصف لي بروميد البوتاسيوم والعلاج بواسطة الحمّامات (15).

صرت إذن إلى الاستحمام صباح مساء، وإلى تناول البروميد. ولم يمض وقتٌ طويل حتّى عدت إلى النّوم، لكنّه كان نوماً أفظع من الأرق. فما إن أرقد حتّى أُغمض عينيَّ وأهوي في العدم. أجل، كنت أهوي في العدم، عدم مطلق، في موتٍ كليّ للوجود يسحبني منه فجأةً إحساسٌ مريعٌ بثقلٍ يسحق صدري، وفمٍ يلتهم حياتي من فمي. آهٍ، يا لتلك الرّجات! لم أَخبِر طيلة حياتي ما هو أفظع منها.

تخيّلوا رجلاً يغتالُ أثناء نومه، فيستيقظ بخنجرٍ مغروزٍ في رقبته؛ يشهق غارقاً في دمه، ولا يستطيع التّنفّس، وهو على وشك الموت، ولا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يفهم ما يقع له، هوذا ما كان يقع لي!

أخذ جسمي في الهزال المستمرّ بشكلٍ مقلقٍ، وانتبهت فجأةً إلى أن حوذيَّ، الذي كان شديد البدانة، قد أخذ يهزل مثلي.

سألته:

- ماذا بكَ يا جان؟ هل أنت مريضٌ؟

فأجابني:

- أعتقد أنّي أُصبت بنفس المرض الذي أصاب سيّدي. لياليَّ تهدر أنهُري.

فكّرت إذن في أنّ ثمّة عدوى حُمّيَّة تستشري في المنزل بسبب جوار النّهر، وهممت بأن أسافرَ شهرين أو ثلاثة، مع أنّنا كنّا في عزّ موسم القنص. لكنّي لاحظتُ حدثاً صغيراً شديد الغرابة، جرّني إلى الانتباه إلى سلسلة من الأمور الخارقة والمرعبة، فقررت البقاءَ.

فإذ عطشت ذات مساءٍ، شربت نصفَ كأسٍ ماءً وانتبهت إلى أنّ قارورة الماء موضوعةً على المنضدة مقابل سريري، كانت ممتلئةً حتّى غطائها الكريستالي.

وأصابتني ليلاً إحدى تلك الاستفاقات المريعة التي أخبرتكم بها منذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليل. أوقدت شمعتي، وقد استبدّ بي ضيق فظيع، وإذ رغبت في أن أشرب مرّةً أخرى، انتبهت مذهولاً إلى أنّ قارورة الماء كانت فارغةً. لم أستطع تصديقَ عينيَّ. فإمّا أنّ أحداً دخل غرفتي وإمّا أنّي كنت مسرنماً.

في اليوم الموالي أردت أن أعيد التّجربة. أقفلت الباب بالمفتاح حتّى أتيقّن من عدم دخول أحدٍ إلى غرفتي. نمت واستيقظت مثل كلّ مرّة. كان الماء، الذي كنت قد رأيته ساعتين قبل ذلك، قد شُرب بأكمله.

من الذي شرب الماء؟ أنا، بلا ريب، مع أنّي متأكّد قطعاً من أنّني لم أقم بأيّ حركةٍ أثناء نومي العميق الموجع.

لجأت إذن إلى بعض الحيَل للتأكّد من أنّني لا أقوم بأفعال لا واعية. وضعت ذات مساءٍ قرب قارورتي، قنينةً من نبيذ بوردو، وقدحاً من الحليب الذي لا أطيقه، وبعضاً من حلوى الشوكولاتة التي أحبّها.

لم يمسَّ النّبيذ ولا الحلوى. بينما اختفى الحليب والماء. صرت كلّ يومٍ أبدّل الشّراب والطّعام. فلم تمسَّ قطّ المواد الصّلبة المتماسكة، ولم يُشرب من السّوائل غير الحليب الطّازج والماء خاصّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن ظلّ في نفسي هذا الشّك المنغّص. ألست أنا من ينهض بلا وعيٍ، فأشرب حتّى الأشياء التي أبغضها، لأنّ حواسي التي خدّرها النّوم المسرنم من الممكن أن يطالها تغييرٌ، فتفقد اشمئزازها المعتاد وتكسب أذواقاً جديدةً.

لجأتُ إذّاك إلى حيلةٍ جديدة أراقب بها نفسي. غلّفت كلّ الأشياء، التي لم يكن لي بدٌّ من لمسها، بأشرطة من الموسلين الأبيض، وغطّيتها فضلاً عن ذلك بمنديل من كتّان الباتيست.

ثمّ، لحظة هجوعي إلى سريري، نثرت على يديّ وشفتيّ وشاربي بُرادة رصاص الأقلام.

وحين استيقاظي وجدت كلّ الأشياء نظيفةً لم تلطّخ، على الرّغم

Telegram:@mbooks90

من أنّ هناك من مسّها، لأنّ المنديل لم يكن على الوضع الذي تركته عليه؛ بالإضافة إلى أنّ الماءَ والحليبَ كانا قد شُربا. على أنّ بابي المقفل بمفتاح أمانٍ، ومصاريع نافذتي مغلّقةٌ بإحكامٍ، ما كانت لتسمح لأحدٍ أن يتسلّل إلى الغرفة.

إذّاك تساءلتُ السّؤال الخطيرَ: من يقبع هنا بقربي، كلّ ليلةٍ؟

أشعر أيّها السّادة أنّني أحكي لكم كلّ ما جرى بسرعةٍ. وإنّكم لتبتسمون، ممّا يعني أنّ رأيكم صار جاهزاً: «إنّه مجنون». كان عليّ أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصف لكم على مهلٍ الانفعالَ الذي ينتاب رجلاً، حبيسَ غرفَته، وهو ينظر عبر زجاج قارورةٍ، إلى ماءٍ اختفى أثناء نومه. كان عليَّ أن أُفهِمكم ذاك العذاب المتجدّد كلّ صباحٍ ومساءٍ، وذاك الرّقاد العصيّ، وتلك الاستفاقات الأشدّ فظاعةً من النّوم نفسه.

لكنّي سأُواصلُ الحديث.

فجأةً توقّف الأمر الخارق. ما عادَ يُمسُّ شيءٌ في غرفتي. انتهى الأمر. وصرتُ أفضلَ حالاً. وعاودني السّرور، إلى أن علمتُ أنّ أحد جيراني، وهو السيّد لُجيت، يشكو بالضّبط من الحالة التي كنت أشكو منها. وشككت مرّة أخرى في وجود عدوى تستشري بالمنطقة. وكان حوذيَّ قد تركني منذ شهرٍ بعد اشتداد مرّضه.

انقضى الشّتاء، وبدأ الرّبيع. ثمّ إنّي، ذات صباحٍ، بينما أتجوّل قربَ مشتل أزهاري، رأيتُ، رأيتُ بوضوح، على مقربةٍ منّي، ساقَ إحدى أجمل الزّهور تنكسرُ كأنّما قطفتها يدٌ خفيّة؛ ثمّ ارتفعت الزهرة متّبعةً المنحنى الذي قد تخطّه ذراعٌ تحملُ كأساً إلى فمٍ، وظلّت معلّقةً في الهواء الشّفاف، بمفردها، ساكنةً، مرعبةً، على بعد ثلاث خطواتٍ من عينيّ.

انقضضت عليها لأمسكها وقد تملّكني رعبٌ مجنون. لم أحصّل شيئاً. كانت قد اختفت. انتابني إثر ذلك غضبٌ أهوجُ تجاه نفسي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس مسموحاً لإنسانٍ عاقلٍ وجادٍ أن يقع ضحيّة مثل هذه التّهيّؤات!

لكن هل كانت بالفعل مجرّد تهيّؤاتٍ؟ بحثت عن السّاق، فوجدتها فوراً في المشتل، مكسورةً حديثاً، ما بين وردتين بقيتا على الغصن؛ وكنتُ حقّاً قد رأيت في البداية ثلاث أزهارٍ.

دخلت إذن إلى بيتي، بنفسٍ مصدومةٍ. أيّها السّادة، أصغوا إليّ، إنّني هادئ؛ لم أكن أومن بالخوارق، وما زلت لا أومن بها إلى اليوم؛ لكنّي صرت، بدءاً من تلك اللّحظة متيقّناً، قدر يقيني في اللّيل والنّهار، من أنّ ثمّة كائناً خفيّاً يجاورني، كائناً سكنني ثمّ تركني، وها هو يعود إليّ.

لاحقاً أتاني البرهان.

بين خدمي كانت تنشب كلّ يومٍ خصوماتٌ عنيفةٌ لأسباب لا حصر لها، أسباب تافهة في مظهرها لكنّها صارت مفعمةً بالمعنى بالنّسبة إليّ.

كأسٌ، كأس فينيسيّة جميلةٌ انكسرت، انكسرت في وضح النّهار بمفردها، في خزانة غرفة الطّعام.

اتّهم الخادمُ الطبّاخةَ، التي اتّهمت المنظّفة، التي اتّهمت من لا أذكر.

أبوابٌ غُلّقت مساءً، تكون مفتوحةً في الصّباح. كلّ ليلةٍ يُسرقُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحليب من المخزن.

- آه! من هو؟ ما طبيعته؟ فضولٌ عصبيّ، يشوبه غضبٌ وعذابٌ، يتملّكني نهاراً وليلاً جاعلني في حالٍ قصوى من الاهتياج.

بيد أنّ المنزل استعاد هدوءَه، فعدتُ إلى الاعتقاد في أنّها كانت مجرّد أحلامٍ، فإذا بالحدث التالي يقع:

كان اليوم العشرون من يوليو، والسّاعةُ التّاسعة مساءً. وكان الجو حاراً جداً، وكنت قد تركت نافذتي مشرعةً، ومصباحي مضاءً فوق طاولتي، ومسلّطاً على مجلّدٍ من مجلّدات دو موسيه، مفتوحٍ على قصيدة «ليلة مايو»، وتمدّدت فوق أريكةٍ كبيرةٍ أخذني النّعاس فوقها.

على أنّي، بعد أن نمت ما يقارب أربعين دقيقة، فتحت عينيّ دون أن تندّ عنّي حركةٌ، مستيقظاً بإحساس غامضٍ وعجيبٍ. لم ألحظ شيئاً في البداية، ثمّ ما لبث أن خيّل إليّ أنّ إحدى صفحات الكتاب قد قُلبت لوحدها. لم تدخل من النّافذة ولاّ هبّةُ ريحٍ. أصابتني الدّهشة، ومكثت منتظراً. وبعد حوالي أربع دقائق رأيتُ، نعم رأيتُ، رأيتُ، يا سادتي، بأمّ عينيّ، صفحةً أخرى ترتفع وتتقلب فوق الصّفحة السّابقة كأنّما تقلّبها إصبع. كان مقعدي يبدو فارغاً، لكنّي أدركتُ أنّه كان هناك، هوَ! قطعت غرفتي وثباً لأمسك به، لألمسه، إن كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من سبيلٍ إلى ذلك... لكنّ مقعدي انقلبَ، قبل أن أبلُغَه، كأنّما فرّ منه أحد، كما سقط مصباحي وانطفأ بعدما انكسر زجاجه، ودُفع مصراعا نافذتي بعنفٍ كأنّما ارتطم بهما مجرمٌ أثناء فراره عبر النّافذة... آه!

انقضضت على الجرس ورننته. ولما ظهر خادمي قلتُ له:

«لقد قلبت وكسرت كلّ شيء، آتني بنورٍ».

لم أنم تلك اللّيلة. ومع ذلك لم أسلم من سطوة الهذيان. ساعة الاستيقاظ كانت حواسي ما تزال مضطربةً. ألست أنا من قلبت أريكتي ومصباحي بينما أركض مثل مجنون؟

كلاّ، لم أكن أنا! كنت على يقين من ذلك، ولم أشكّ فيه ولا لوهلة. ومع ذلك كنت أريد التّصديق.

مهلاً. هذا الكائن! ماذا أسمّيه؟ الخفيّ. كلاّ، هذا الاسم لا يوفي. لقد عمّدته باسم الهورلا. لم؟ لست أدري. لم يعد إذن الهورلا يفارقني البتّة. صار يتملّكني، ليلاً ونهاراً، الإحساسُ، بل اليقين، بالحضور القاطع لهذا الجار المتعذّر الإدراك، وأيضاً الإحساس بأنّه يسلبني حياتي، ساعةً ساعةً، دقيقةً دقيقةً.

استعصاء رؤيته كان يصيبني بالسّخط، فأضيء كلّ أنوار منزلي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنّما سأستطيع كشفه في غمرة تلك الأنوار.

وأخيراً رأيته.

أنتم لا تصدّقونني. ومع ذلك، لقد رأيته. كنت جالساً إلى كتّابٍ، لا أقرأ فيه، وإنّما أراقب بكلّ أعضائي المستنفرة ذاك الذي أحسّه بقربي. لا ريب في أنّه كان هناك. لكن أين؟ وماذا يفعل؟ وكيف السّبيل إلى بلوغه؟

قبالتي سريري، سريرٌ عتيقٌ مصنوع من خشب السّنديان. إلى يميني مدفأتي. وإلى يساري الباب الذي أقفلته بإحكام. وخلفي دولاب عظيمٌ بمرآةٍ أستعين بها كلّ صباحٍ في حلاقة ذقني وارتداء ملابسي، وكنت قد درجتُ، كلّما مررت أمامها، على النّظر فيها إلى نفسي من أعلى رأسي حتّى أخمص قدميّ.

كنت إذن أتظاهر بالقراءة، حتّى أخدعه، لأنّه هو أيضاً يخاتلني؛ وفجأةً أحسست، [بل] كنت متأكّداً من أنّه كان يقرأ من فوق كتفي، كان هناك، يكادُ يلامسُ أذني.

قمت واقفاً، واستدرت بسرعةٍ كدتُ معها أن أسقط. وإذن! ... كان بالإمكان الرّؤية بوضوح كما لو أنّنا في وضح النّهار، ومع ذلك لم أشاهد نفسي في مرآتي!... كانت المرآة فارغةً، صافية، مفعمةً بالنّور!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تكن صورتي تنعكس فيها... مع أنّي كنت أقف قبالتها! كنت أنظر إلى قطعة الزّجاج الصّافية من أعلاها إلى أسفلها. وكنت أنظر إلى ذلك بعينين ذاهلتين، دون أن أجرؤ على التّقدّم خطوةً، مع أنّي كنت أحسّ فعلاً بأنّه كان بيني وبين المرآة، وأنّه ما يزالُ يفلت منّي، لأنّ جسدَه اللا مرئيّ قد التهم انعكاس صورتي في المرآة.

لَشدَّ ما تملّكني الرّعبُ! ثمّ ما لبثُ بغتةً أن بدأت ألمح نفسي داخلَ ضبابٍ، في قلب المرآة، داخل ضبابٍ كَمَن يلمح صورته على صفحة ماء؛ وكان يبدو لي ذاك الماء يرتجُّ من اليسار إلى اليمين، ببطءٍ، جاعلاً صورتي تتّضح أكثر فأكثر، ثانيةً بعدَ أخرى. كأنّما هي نهاية كسوفٍ. وما كان يحجب صورتي لم يكن يبدو أنّ له ملامحَ دقيقة، وإنّما فقط ضرباً من الشّفافية الكامدة الآخذة في التوضّح شيئاً فشيئاً.

ثمّ صار بوسعي أخيراً أن أميّز نفسي بالكامل، تماماً مثلما يحدث كلّ صباحٍ حين أنظر إلى نفسي في المرآة.

لقد رأيته! تمكّن منّي الرّعبُّ حتّى أنّي ما أزال أرتجف خوفاً.

غداة ذلك قصدت هذا المكانَ، ورجوتهم أن يستبقوني هنا.

والآن يا سادتي أعطيكم خلاصة القول.

بعد أن طال تشكيكه في كلامي، قرّر الدكتور ماراند أن يسافرَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنفسه إلى بلدي.

ثلاثةٌ من جيراني يعانون اليومَ من نفس الأعراض التي كنت أعانيها. أليس كذلك؟

أجاب الدّكتور قائلاً: «بلى!».

- ألَم تطلب منهم ترك بعض الماء والحليب كلّ ليلة في غرفهم لترى ما إذا كانت تلك السوائل ستختفي. فقاموا بذلك، وكانت النّتيجة اختفاء تلك السّوائل؟

أجاب الدّكتور بنبرةٍ حازمة: «لقد اختفت السّوائل».

هو إذن كائنٌ جديد يا سادة، كائنٌ جديد لن يلبث أن يتكاثر على غرارنا، كائنٌ جديد ظهر على الأرض.

آه! إنّكم تضحكون! لماذا تضحكون؟ لأنّ هذا الكائن ما يزال لا مرئيّاً. لكنّ عيننا يا سادة عضوٌ بدائيٌّ جداً لدرجة أنّها بالكاد تستطيع رؤية ما هو ضروريّ لوجودنا. هي لا تقدر أن تدرك الأشياء البالغة الصّغر ولا الأشياء البالغة الكبَر، ولا الأشياء البعيدة جداً. فهي تجهل الكائنات التي تسكن قطرة ماء. وتجهل سكّان ونباتَ وترابَ النّجوم المجاورة لنا؛ لا تستطيع حتّى أن ترى الشفّاف.

ضعوا أمامها قطعة زجاجٍ غير مطليّة، ولن تميّزها، وستصطدم بها،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

مثلما يصطدم بزجاج النّوافذ عصفورٌ يجد نفسه حبيسَ منزلٍ فيكسر رأسه مرتطماً بالزّجاج. هي إذن لا ترى الأجسام الصّلبة الشّفافة التي توجد مع ذلك؛ لا ترى الهواء الذي يغذّينا، ولا الرّيحَ، التي هيَ أعظمُ قوى الطّبيعة، القوّةُ التي تطوّح بِبَني البشر، وتدكّ الحصونَ، وتقتلع الأشجار، وتصنع من مياه البحار جبالاً، وتهدم الجروف الصخريّة.

ما العجب إذن إن لم تستطع إدراك جسمٍ جديد، جسم تنقصه خاصية ردّ أشعّة الضّوء.

هل تَرَونَ الكهرباء؟ ومع ذلك هي موجودة!

هذا الكائن الذي أسمَيتُه الهورلا هو أيضاً موجود.

من هو؟ إنّه ذاك الذي سيخلف الإنسان على الأرض! ذاك الذي أتى يزيحنا عن عرشنا، يستعبدنا، يروّضنا، ولربّما تغذّى بنا مثلما نتغذّى بالثيران والخنازير.

منذ قرون ونحن نستشعره، نحسّ اقترابه، نتهيّبه، ونعلن عنه!

لطالما سكن آباءنا خوفُ اللامرئيّ.

وها قد أتى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلّ أساطير الجنيّات والأقزام والأرواح المتعذّرة الإدراك والمؤذية، كانت عنه تتحدّث، تتحدّث عنه كما استشعره الإنسان القلق الذي كان قد بدأ أصلاً يرتعد متوجّساً من وصوله.

وعبر كلّ ما تفعلونه أنتم أنفسكم يا سادة، منذ بضع سنواتٍ، تلك الممارسات التي تسمّونها التنويم والإيحاء والمغنطة، عبرها كلّها تعلنون عن قدومه، تتنبّؤون به!

أقول لكم إنّه قد أتى. هو أيضاً يهيم حائراً، مثلما فعل أوائل البشر، جاهلاً بمدى قوّته وقدرته اللتين لا شكّ أنّه سيدركهما عاجلاً.

وختاماً يا سادتي، هو ذا جزء من صحيفةٍ وقعت بين يدي، صحيفةٍ صدرت في ريو دي جانيرو. أقرأ: «ثمّة ما يشبه وباء جنونٍ يستشري منذ مدّة في ضواحي ساو باولو. سكّان قرى عديدة هربوا تاركين أراضيهم ومنازلهم، بدعوى أنّهم ملاحقون، تأكلهم كائناتٌ كأنّها مصّاصو دماءٍ، كائناتٌ لا مرئية تقتات على أنفاسهم أثناء نومهم، ولا تشرب غير الماء، وبعض الحليب من حين إلى آخر!».

وأضيف: «أذكر بوضوحٍ أنّي، أيّاماً قبل إصابتي بالمرض الذي كاد يودي بي، كنت قد رأيتُ سفينة برازيليّة ثلاثية الصّواري باسطةً شراعَها... فكما أخبرتكم منزلي يقع على ضفاف الماء... كانت السّفينة شديدة البياض... ولا ريب في أنّه كان متخفياً على متنها...».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس لديَّ ما أُضيفُه يا سادتي.

قام الدّكتور ماراند وغمغم:

«أنا أيضاً ليس لديَّ ما أُضيفُه. لست أدري إذا ما كان هذا الرّجل مجنوناً.. أو كنّا كلانا كذلك...، أو أنّ... أنّ خليفتنا قد أتى حقاً».

Telegram:@mbooks90

Fig. 429. — Une leçon clinique du docteur Charcot, à la Salpêtrière.
D'après le tableau d'André Brouillet, au Salon de 1887. (Photog. Braun, Clément et Cie.)

* Le Dr Charcot montre à ses auditeurs comment un sujet tombe en catalepsie. Parmi les assistants, on remarque Mathias-Duval, Jules Claretie qui prenait alors des notes pour *Jean Mornas*, le sénateur Cornil, etc. Au Salon de 1890, Moreau de Tours devait représenter les *Fanatiques de la Charité* avec un autre maître de l'hypnotisme contemporain, le Dr Luys et ses élèves.

الدكتور شاركو (١٨٢٥-١٨٩٣)

في درس تطبيقي لتقنية التنويم المغناطيسي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالة من رجلٍ ممسوس(16)

سيّدي الطّبيب،

ها أنا ذا أضع نفسي بين يديك. اِفعل بيَ ما شئتَ. سأصف لك بصدقٍ حالتي العقلية الغريبة، وستقرّر ما إذا كانت تجدر العنايةُ بي بعض الوقت في مصحّة، بدلاً من تركي فريسة الهلاوس والآلام التي تعذّبني.

هي ذي القصّة الطّويلة والدّقيقة، قصّة الدّاء الفريد الذي ألَمَّ بنفسي.

كنت أعيش مثل جميع النّاس، ناظراً إلى الحياة بعيون الإنسان المحدقة والعمياء، دون أن أتعجّبَ أو أفهمَ. كنت أعيش كما تعيش البهائم، وكما نعيش جميعنا، مضطلعاً بكلّ وظائف الوجود، أفحص الأمور وأحسبُ أنّي أرى، أحسبُ أنّي أعرف، أحسب أنّي أدرك ما يحيط بي، إلى أن أيقنتُ ذاتَ يومٍ أنّ كلّ شيء خطأ.

كانت إحدى عبارات مونتيسكيو هي ما أنارَ فجأةً فكري. هي ذي: «إنّ زيادة عضوٍ أو نقصه داخلَ جهازنا، لكفيلٌ بأن يمنحنا ذكاءً مغايراً.

ثمّ إنّ كلّ القوانين المترتّبة عن جهازنا، كانت لتكون مختلفةً لو أنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا الجهازَ لم يركّب على هذا النّحو». فكّرت في هذا أشهراً، وأشهراً وأشهراً، وشيئاً فشيئاً بدأت تتسلّل إلى نفسي بصيرةٌ، وهذه البصيرة أظلمت نفسي.

وفي الواقع، إنّ أعضاءَنا هي الوسيط الوحيد بيننا وبين العالم الخارجيّ. ما يعني أنّ الوجود الدّاخليّ، الذي يتمثّل في الأنا، يتّصل، بواسطة بعض الأعصاب، مع الوجود الخارجيّ الذي يتمثّل في العالم.

وفضلاً عن كون هذا الوجود الخارجيّ ينفلت منّا عبر أبعاده، وديمومته، وخواصه المتمنّعة التي لا تعدّ ولا تحصى، وأصوله، ومآله أو غاياته، وصيغه البعيدة وتمظهراته اللامتناهية؛ فإنّ حواسّنا لا تهبُنا من ذاك الجزء الضّئيل الذي بمقدورنا معرفته منه، إلا معلوماتٍ ضئيلة وغير موثوقة.

غير موثوقة، لأنّ وحدها خواص أعضائنا هي ما يحدّد بالنّسبة لنا خواصّ المادّةِ الظّاهرةَ.

ضئيلة، لأنّ حواسنا ليست سوى خمسٍ، وبالتّالي فإنَّ حقل تقصّيها وطبيعةَ كشوفِها يكونان شديدي الانحسار.

أفسّرُ:

- إنّ العينَ تبدي لنا الأبعادَ، والأشكالَ والألوانَ. [لكنّها] تخدعنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على مستوى هذه النقط الثلاث.

هي لا تستطيع أن تكشف لنا سوى الأشياء والكائنات ذات الأبعاد المتوسّطة، أي تلك التي تتناسب مع حجم الإنسان، وهذا ما دفعنا إلى استعمال كلمة كبير للتّعبير عن بعض الأشياء، وكلمة صغير للتعبير عن أخرى، وكلّ هذا فقط لأنّ ضعف العين لا يسمح لها بأن تدرك ما هو هائلٌ جداً أو شديد الضآلة بالنّسبة لها.

ونتيجةً لذلك، هي لا تكاد تعرف أو ترى شيئاً، ويظلّ الكون بأكمله محتجباً عنها، بدءاً من النّجمة التي تقيم في الفضاء إلى الكائن المجهريّ الذي يقيم في قطرة ماء.

وحتّى لو أنّها كانت تمتلك قوّة تفوق مائة مليون مرّة قوّتها الطّبيعيّة، واستطاعت أن ترى في الهواء الذي نتنفّسه كلّ ضروب الكائنات اللامرئيّة، وسكّان الكواكب المجاورة، سيظلّ ثمّة عدد لا محدود من الكائنات الأشدّ صغراً ومن العوالم البعيدة التي لن تدركها أبداً.

كلّ تصوّراتنا عن الأبعاد خاطئةٌ إذن، ما دام ليس ثمّة حدود ممكنةٌ للكِبَر والصِّغَر.

كلّ تقديراتنا فيما يخصّ الأبعادَ والأشكالَ تظلّ بلا قيمةٍ مطلقة، ما دامت مشروطةً فقط بمدى قوّة عضوٍ من أعضاء الجسم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبالمقارنة الدّائمة مع ذواتنا، ممّا يجعلها لا تعكسُ سوى نظرتِنا [الذاتية] للحقيقة.

زد على ذلك أنّ العين عاجزةٌ عن رؤية الشّفيف. زجاجٌ بلا خلفية يخدعها، إذ لا تميّز بينه وبين الهواء الذي لا تراه بدوره. ولنَنْظُر في أمر الألوان.

إنّ اللّون يوجد لأنّ العين مركّبةٌ بشكلٍ يسمح لها بأن ترسل إلى الدّماغ، في شكلِ لونٍ، مختلفَ الأشكال التي تعمل عبرها الأجسام، بحسب بنيتها الكيميائية، على امتصاص وتحليل أشعّة الضوء التي تسقط عليها.

وأبعاد عمليّات الامتصاص والتّحليل تلك، هيَ ما يشكّل اللطائف والفروق اللّونيّة.

يفرض هذا العضوُ إذن على النّفس وجهةَ نظره، أو بعبارةٍ أمثل: طريقتَه الاعتباطية في ملاحظة الأبعاد واعتبار علاقات الضوء والمادّة.

لننتقل إلى فحص السّمع. أكثر ممّا يحدث مع العين نفسها، نقع فريسة ألاعيب وحيل هذا العضو المخاتل.

يصطدم جسمان، فيحدث تصادمهما ضرباً من الاهتزاز في الجوّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وترجّ تلك الحركة جلدةً داخلَ آذاننا، فتحوّل تلك الجِلدة فوراً إلى صوتٍ، ما هو في الأصلِ اهتزازٌ.

الطّبيعةُ خرساء. لكنّ طبلة الأذن تمتازُ بالقدرة المعجزة على تحويل كلّ تحركات أمواج الفضاء اللامرئيّة إلى أصوات، أصواتٍ مختلفةٍ بحسب عدد الاهتزازات.

وهذا التّحوّل الذي يضطلع به العصب السمعي أثناء مساره القصير من الأذن إلى الدّماغ، قد مكّننا من أن نخلقَ فنّاً عجيباً، أقصد الموسيقى، التي هي أنفس الفنون وأكثرها شعريّة، فنّ مبهم مثل حلمٍ، ودقيق مثل علم الحساب.

وماذا نقول عن الذّوق والشّم؟ أكنّا لنعرف روائح الأطعمة ومذاقاتِها لولا الخصائص العجيبة التي يمتاز بها أنفنا وحنكنا؟

ومع ذلك بوسع الجنس البشريّ أن يعيش دون الأذن، ودون الذوق والشمّ، أي دون أن يكون لديه أيّ تصوّر عن الصوت والمذاق والرّائحة.

وعليه، إذا ما كنّا نملك أعضاءً أقلَّ، فإنّنا سنجهل أشياءً عجيبةً وفريدة؛ وإن كنّا نملك أعضاءً أكثرَ، سنكتشف حولَنا عدداً لا محدوداً من الأشياء التي ما كنّا نشكّ في وجودها، بسبب نقص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسائل الملاحظة. نحنُ إذن نخطئ أثناء حكمنا على المعلوم، وفي الآن نفسه محاطون بمجهولٍ لم يُستكشف.

وإذن، لا شيء قطعيّ، وكلّ شيءٍ [نسبيّ] يُقدّر بطرائقَ مختلفة.

كلّ شيء خاطئٌ، كلّ شيء ممكنٌ، كلّ شيء مريبٌ.

ولنُعد صياغة هذا اليقين متوسّلين بحكمة قديمة: «ما هو صوابٌ في هذه الجهة من جبال البرينيه، هو خطأ في الجهة الأخرى»(17).

خارج نطاق عالمنا، ليس من الضروري أن يكون حاصلُ اثنين واثنين أربعةً.

ما هو صوابٌ على الأرض، هو خطأ في مكانٍ آخر، ومنه أخلص إلى أنّ الألغاز التي تواجهنا، كالكهرباء، والتنويم المغناطيسي، والتخاطر، والإيحاء، وكلّ الظواهر المغناطيسيّة، تحتجب عن إدراكنا، لأنّ الطبيعة لم تهبْنا العضو، أو الأعضاء الضروريّة لفهمِها.

وبعدما اقتنعت بأنّ كلّ ما تكشفُه لي حواسي، لا يوجد إلا بالنّسبة إليّ، أي على النّحو الذي أدركه به أنا، وأنّه سيكون مختلفاً بالنّسبة إلى كائنٍ آخر جُعلت حواسُه على نحوٍ مختلف؛ بعدما خلصت إلى أنّه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لو وُجدَ بشرٌ مختلفون عنّا، لكانت لهم أفكارٌ مختلفة عن أفكارنا تماماً، فيما يخصّ العالم والحياة، ذاك أنّ اعتناقنا نفس القناعات لا يأتي إلا من كوننا نمتلك أعضاءً متشابهة، وليس اختلاف آرائنا إلا نتيجة فروقنا الطفيفة على مستوى اشتغال الجهاز العصبيّ، ولقد بذلت جهداً فكرياً يفوق طاقة البشر سعياً إلى سبر أغوار الغامضِ الذي يحيط بي.

هلِ فقدتُ عقلي؟

لقد قلت لنفسي: إنّي مُحاطٌ بأشياء مجهولة.

لقد تصوّرت حالة إنسانٍ بلا أذنين، يتحسّس الصّوتَ مثلما نتحسّس نحن الكثير من الأسرار الغامضة، إنسانٍ تتناهى إليه الأصداء، دون أن يستطيع تحديد طبيعتها أو مصدرها.

فشعرت بالخوف من كلّ شيء حولي، خفتُ من الهواء، خفتُ من الليل. إذ لا يكون بمقدورنا أن نعرف شيئاً، وإذ يصير كلّ شيءٍ بلا حدٍّ، ما الذي يبقى؟ لا وجود للفراغ؟ وإذن، ما الذي يوجد في الفراغ الظّاهر؟

وإنّه لخوفٌ طبيعيٌّ ومشروعٌ، ذاك الخوف الذي يستوطنُ الإنسان منذ فجر العالم، ما دامت الظواهر الخارقة ليست سوى الأشياء التي ما زال محجوبة عنّا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذّاك أدركني الفزعُ. حسبتُ أنّي أوشك أن أكشف سرّاً من أسرار الكون.

حاولت شحذَ أعضائي، تحفيزها، جعلها تلمح، لوهلةٍ، اللامرئيّ.

قلت لنفسي: كلّ شيءٍ هو كائنٌ. الصرخةُ التي تعبر الفضاءَ هي أيضاً كائنٌ، مثلها مثل الحيوانِ، لأنّها أيضاً تولَد، وتتحرّك، وتتحوّل ثمّ تموت.

وإذن، ليس مخطئاً الذّهنُ الخوّافُ الذي يؤمن في وجود كائناتٍ غير مجسّدة. ما هي؟

كم ذا يحسُّها الإنسانُ، ويقشعرّ لدنُوّها منه، ويرتجف حين يقع بينه وبينها التماسُّ المذموم. إنّنا نشعر بها قريبةً منّا، حولنا، لكنّنا لا نستطيع تمييزها لأنّنا عُدِمنا العين التي تقدر أن تراها، أو بالأحرى عُدِمنا العضوَ المجهولَ الذي يقدر أن يكشفها.

إذّاك، صرتُ أستشعر وجودهم أكثر من أيّ شخصٍ آخر غيري، أقصد أولئك الجوابين الخارقين للطبيعة. أهُم كائنات أم ظواهر غامضة؟ ما أدراني؟ لا أستطيع أن أبيّن هويّتهم، لكنّني أستطيع دائماً أن أحسّ بحضورهم. ثمَّ رأيتُ -رأيت كائناً لا يُرى- تلك الكائنات، وُسع ما تسمح به الرؤية.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أطوي ليالِيَ بأكملها ساكناً، جالساً أمام طاولتي، رأسي فوق كفيَّ أفكّر في الأمر، أفكّر فيهم. وكثيراً ما شعرتُ بيدٍ غير محسوسة، أو بالأحرى بجسمٍ لا يُدرَك، يحاذي شعري برفق. لم يكن يمسّني، لأنّه لم يكن ذا ماهيّة جسديّة، وإنّما كانت ماهيته غير قابلةٍ للوزن أو المعرفة.

على أنّي، ذات مساءٍ، سمعتُ خلفي وقعاً على أرضية بيتي الخشبيّة. كانَ وقعاً فريداً. ارتجفتُ. استدرتُ. لم أرَ شيئاً. ولم أفكّر في الأمر مرّةً أخرى.

لكن في اليوم الموالي، وفي نفس السّاعة، تكرّر الصوتُ نفسه. خفتُ لدرجةِ أنّي قمتُ، متيقّناً، متيقّناً، متيقّناً من أنّني لم أكن وحدي بالغرفة. ومع ذلك، ما كنت أرى شيئاً. كان الهواء رائقاً شفّافاً في كلّ مكانٍ. وكانَ مصباحيَّ يضيئان كلّ الزوايا.

لم يتكرّر الصوت، وأخذت أستعيد هدوئي شيئاً فشيئاً؛ ومع ذلك، بقيتُ قلقاً، ولم أكفّ عن الالتفات خلفي.

في اليومِ الموالي، لُذت بالغرفة في وقتٍ مبكّرٍ، باحثاً عن إمكانٍ لرؤية الكائن الخفيّ الذي يأتيني زائراً.

ورأيتُه. كدتُ أموتُ رعباً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنتُ قد أوقدتُ شموعَ مدفأتي ومشكاتي جميعاً. فكانت الغرفةُ مضاءَةً كأنّما بها حفلةٌ. مصباحايَ فوق الطّاولة متّقدان.

قُبالتي، سريري، سريرٌ عتيقٌ مصنوعٌ من خشب السّنديان. عن يميني مدفأتي، وعن شمالي بابي الذي غلّقتُه بالمفتاحِ. وخلفي دولابٌ كبيرٌ بمرآة. حدّقت في المرآة. كانت عينايَ غريبتَين وبؤبؤاهما متّسعين كثيراً.

ثمّ جلستُ كدأبي كلّ يومٍ.

كان الصوتُ قد حدث في اليومين السابقين عند نفس الساعة: التّاسعة واثنتان وعشرون دقيقة. لبثتُ منتظراً. ثمّ، إذ حانت اللحظة المضبوطة، شعرتُ بإحساسٍ يستحيل وصفُه، كأنّ مادّة شفيفةً، مادّة يستحيل مقاومتُها، اقتحمت جسمي عبر مسامِ جلدي كلّها، مُغرقَةً روحي في رعبٍ فظيعٍ ولذيذ. وهويتُ بكامل ثقلي.

قمتُ واقفاً وأنا أستدير بسرعة حتّى كدتُ أسقط مجدّداً. كانت الرؤية واضحةً كأنّنا في وضحِ النّهار، ومع ذلك لم أرَ نفسي في المرآة! كانت المرآة فارغةً، واضحةً، مفعمةً بالضّوء. ما كنتُ أنعكس فيها، رغم أنّي كنتُ قبالتها. أخذت أنظر إليها بعينين ذاهلتين. لم أجرؤ على أن أقترب منها، لأنّي كنت أعلم أنّه، هو اللامرئيّ، بيني وبينها، وأنّه يحجبني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آه! لشدّ ما خفتُ! ثمّ ما لبثتُ أتجلّى لنفسي وسط ضبابٍ داخل المرآة، ضبابٍ كأنّما أنظرُ عبر الماء؛ وبدا لي أنّ هذا الضباب يموج يمنةً ويسرةً، رويداً رويداً، فأنكشف عبرَه وأزداد وضوحاً لحظةً بعد أخرى. كأنّما هي نهاية كسوفٍ. الشيء الذي كان يحجبني لم يكن له محيطٌ، وإنّما هو أشبه بشفافية كامدة تتضح شيئاً فشيئاً.

واستطعت في نهاية المطاف أن أميّز نفسي واضحاً، مثلما أبدو لنفسي كلّ يومٍ حين أنظر إلى المرآة.

لقد رأيتُه إذن! ولم أرَه بعد ذلك أبداً.

لكنّني ما زلت أنتظره، وأحسّ أنّ عقلي يضيع في هذا الانتظار.

أظلّ ساعاتٍ، وليالِيَ، وأياماً، وأسابيعَ، أمام مرآتي، أنتظرُه! لكنّه لم يعُد.

لقد أدرك أنّي رأيتُه. لكنّي أحسّ أنّي سأنتظره إلى الأبد، لن أكفّ عن انتظاره، قبالة هذه المرآة، مثل صيادٍ يكمن لفريسةٍ.

وفي هذه المرآة صرتُ أرى صوراً جنونيةً، مسوخاً، جثثاً بشعةً، وحوشاً رهيبة، وكلّ التهيّؤات اللامعقولة التي تسكنُ عقول المجانين.

ها قد أفضيت إليك بما في نفسي يا دكتور. قُل لي، ماذا أفعل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

APPARITION

On parlait de séquestration à propos d'un procès récent. C'était à la fin d'une soirée intime, rue de Grenelle, dans un ancien hôtel, et chacun avait son histoire, une histoire qu'il affirmait vraie.

Alors le vieux marquis de la Tour-Samuel, âgé de quatre-vingt-deux ans, se leva et vint s'appuyer à la cheminée. Il dit de sa voix un peu tremblante :

« — Moi aussi, je sais une chose étrange, tellement étrange, qu'elle a été l'obsession de ma vie. Voici maintenant cinquante-six ans que cette aventure m'est arrivée, et il ne se passe pas un mois sans que je la revoie en rêve. Il m'est demeuré de ce jour-là une marque, une empreinte de peur, me comprenez-vous? Oui, j'ai subi l'horrible épouvante, pendant dix minutes, d'une telle façon que depuis cette heure une sorte de terreur constante m'est restée dans l'âme. Les bruits inat-

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصفحة الأولى من قصّة «طيف»

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طيف (18)

كان حديثاً عن حبسٍ متعلّقٍ بمحاكمة جرت مؤخّراً، حديثاً جمعنا نهايةَ سهرة حميمة جرت أطوارُها بشارع غرونيل، بفندقٍ عتيق، وكلّ متحدّث إلا وأدلى بقصّته، قصّته التي يؤكّد صدقها.

ثمّ إنّ الشيخ ماركيز لاتور-صامويل، البالغ من العمر اثنتين وثمانين سنةً، قامَ واقفاً، وتقدّم صوب المدفأة يستند إليها، وقال بصوته الرّاجف بعض الشّيء:

«أنا أيضاً أعرف شيئاً غريباً، شيئاً من الغرابة حتّى أنّه صار هوسَ حياتي. انقضت الآن ستٌّ وخمسون سنةً مُذ شهدتُ تلك المغامرة، ومذّاك لم يمرّ عليّ شهر من دون أن تعاودني في أحلامي. لقد خلّف فيّ ذاك اليومُ علامةً، بصمةَ خوفٍ، أتفهمون قصدي؟ أجل، لقد جرّبتُ الخوفَ المريع مدّةَ عشر دقائق، لدرجة أنّه منذ تلك السّاعة انغرس في نفسي ضربٌ من الرّعب المقيم. حتّى الأصوات المباغتة ترجّفني حتى يَجف لها قلبي؛ والأشياء التي لا أتبيّنُها في ظلمة المساء تصيبني برغبةٍ هوجاء في الفرار.

«أوه! ما كنتُ لأبوح بكلّ هذا، لولا أنّي قد بلغت من العمر هذا القدر. الآن، صار بوسعي أن أفصح عن كلّ شيء. فمن المسموح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمرء حين يبلغ الثانية والثمانين من عمره أن يجبُن أمام الأخطار المتخيّلة. أمّا الأخطار الواقعية فلم يسبق لي أن تراجعت أمامها، يا سيّداتي.

«لقد قلبت هذه القصّةُ كياني، وزرعت فيّ اضطراباً عميقاً، شديد الغموض، شديد الرّعب، حتّى أنّي لم أجرؤ قطّ على حكيها. لقد حفظتُها في قرارة نفسي، تلك القرارة التي نحفظ فيها الأسرار المرهقة، الأسرار المُخجلة، كلَّ لحظات الهوان التي عرفناها طيلة وجودنا.

«سوف أخبركم بالحدث كما وقع، من دون أن أسعى إلى شرحه. مؤكّد أنّه غير قابل للتّفسير، اللهم إلاّ إن اعتبرتُ أنّي عشت لحظةَ فقدانِ صوابٍ. لكنّه أمرٌ غير ممكنٍ، فأنا لم أجنَّ ساعتها، ولسوفَ أعطيكم الدّليل على ذلك. فلتتصوّروا ما بدا لكم. أمّا أنا فأعرض لكم الأحداث كما جرت، وهي ذي:

«حدث الأمر سنة ١٨٢٧، شهر يوليو/تمّوز. وكنت حينئذ في رُوَان بالحامية.

«وذات يومٍ، بينما أتجوّل على الرّصيف، صادفت رجلاً، خلتُني أعرفُه من دون أن أستطيع تحديد من يكون. أقدمت، غريزياً، على حركةٍ كي أتوقّف. انتبه الغريب إلى حركتي، فتهاوى بين ذراعيّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«كان صديقاً من أصدقاء الصّبا، ممّن كنت أمحضهم كبيرَ الحبِّ. خمس سنواتٍ مضت من دون أن نلتقي، وكان يبدو كأنّما شاخَ نصفَ قرنٍ. شعرُه ابيضَّ بأكمله؛ وصار يمشي مقوّس الظّهر كأنّما أُنهكَ. أدرك مفاجأتي فقصّ عليّ حياتَه. مصيبةٌ رهيبةٌ قصمته.

«كان قد هام في غرام شابّةٍ، فتزوّجها وهو في حالٍ من وَجْد السّعادة. وبعد عامٍ من الرّغد الذي يفوق كلّ رغدٍ بشريّ، ومن الشّغف الذي لا ينضب، ماتت فجأةً بمرضٍ في القلب، قتلها الحبُّ نفسه بلا ريبٍ.

«وفي اليوم نفسه الذي دفنها فيه، ترك قلعته، ونزل بمسكنه في روان. وهناك عاشَ في وحدةٍ ويأسٍ، يقضمه الوجعُ، وحاله في بؤسٍ حتّى ما عاد يفكّر إلا في الانتحار.

قال لي: «ما دمتُ قد لقيتك، فسوف أطلب منك أن تسدي إلي معروفاً كبيراً؛ أن تذهب إلى بيتي، وتأتيني من خزنة مكتبٍ بغرفتي، أقصد غرفتنا، بأوراق أحتاجها لأمرٍ عاجلٍ. لا أستطيع أن أكلّف بهذه الخدمة أحد معاونيّ، أو رجلَ أعمالٍ، إذ يحتاج الأمر سريةً تامّة وصمتاً مطلقاً. أمّا أنا، فلن أدخل البيت مرّةً أخرى مهما حدث.

«سأعطيك مفتاح الغرفة التي أغلقتها بنفسي قبل أن أغادر البيت، وكذلك مفتاح الخزنة. وستعطي البستانيَّ مكتوباً من عندي يفتح لك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأمره باب القصر.

«تعالَ غداً للغذاء معي، وسنتحدّث في الأمر.

«وعدته بأن أسدي إليه هذه الخدمة البسيطة. والحقّ أنّها لم تكن تعدو نزهةً بالنّسبة إليّ، إذ إنّ قصره المذكور يقع على بعد خمسة فراسخ تقريباً من روان. فكنتُ لأصله في ساعةٍ على ظهر الحصان.

«في اليوم التّالي، وفي السّاعة العاشرة، كنتُ بمنزله. تغذّينا معاً، لكنّه لم ينطق بالكثير. طلب منّي أن أعذره؛ قال إنّ زيارتي المرتقبة للبيت الذي شهد سعادتَه، تجعله في حالٍ من الاضطراب. وبالفعل، كان يبدو لي في حالٍ فريدة من البلبلة والانشغال، وكأنّما نفسه ساحةٌ لصراعٍ غامضٍ.

«ثمّ إنّه بيّن لي بالضّبط ما ينبغي أن أقوم به. كان أمراً بسيطاً. كان عليّ أن أحمل حزمة رسائل، ورزمة أوراقٍ مغلّقٍ عليها في الدّرج الأوّل من الأثاث الذي أعطاني مفتاحه.

أضاف: «-لا حاجة بي إلى رجائك ألاّ تختلس النّظر إلى الأوراق.

«جرحني كلامه، فعبّرت عن انزعاجي بشيءٍ من الحدّة.

غمغم: «اعذرني، فألمي لا يطاق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ثمّ انخرط في البكاء.

«غادرته نحو السّاعة الواحدة، كي أتمّ مهمّتي.

« كان اليوم مشرقاً، وسرتُ بالحصان خبباً بين الحقول، منصتاً إلى غناءِ القبّراتِ وقعقعةِ سيفي على حذائيَّ الموقّعةِ.

«ثمّ دخلت الغابةَ، فألجمتُ حصانيَ. كانت أغصانُ الشّجر تداعب وجهي؛ وبين الفينة والأخرى، كنت أقضم بأسناني ورقةً، فأمضغها بشراهةٍ، وأنا في حالٍ من الحبور شبيهةٍ بتلك الأحوال التي تملأ المرء، لسببٍ مجهولٍ، بفرحٍ غامضٍ متعذّر الإدراك، ونشوةٍ من القِوى.

«ولمّا اقتربتُ من القصر، التمست في جيبي المكتوبَ الذي وُجّهَ معي إلى البستانيّ، فانتبهتُ بدهشةٍ إلى أنّ الرّسالة كانت مختومة. كانت دهشتي وتوتّري عظيمين لدرجة أنّي فكّرت في أن أعود أدراجي وأتنصّل من المهمّة التي أوكلت بها. لكن بدا لي أنّ تصرّفي ذاك سيكون قلّةَ ذوقٍ. ثمّ إنّ صديقي لربّما يكون قد أغلق المكتوب، من غير أن ينتبه، لفرط الاضطراب الذي كان يتخبّط فيه.

« كان القصر يبدو مهجوراً منذ عشرين سنةً. حاجزه مفتوحٌ ومتضعضع، ولا أدري كيف ما يزال قائماً. العشبُ غزا الممرات، وما عاد بالإمكان تبيّنُ مواضع الزّهور وسط العشب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«وللضّجيج الذي أحدثته وأنا أضرب بقدمي على أحد المصاريع، خرجَ شيخٌ من بابٍ جانبيّ وبدا مذهولاً لمرآيَ. قفزت صوبَه، وسلّمته المكتوبَ. قرأه، وأعاد قراءته، ثمّ استدار نحوي وتأمّلني من علٍ؛ وبعد ذلك وضع الورقة في جيبه، وسألني:

«- حسناً! أيّ خدمةٍ تشتهي؟

أجبته بحدّة:

«- لابدّ أنّك تعرفُ، ما دام سيّدك قد بيّن لك أوامره في المكتوب، أريد أن أدخل إلى القصر.

«بدا مذعوراً. قال: - وإذن، سوف تدخلُ... غرفته؟

«بدأ صبري ينفذ:

- هل هو استنطاقٌ، بحقّ السّماء؟

«غمغم: - كلاّ يا سيّدي.. إنّما... إنّما الغرفة لم تُفتح منذ.. منذ.. الوفاة. لو تفضّلت عليّ بخمس دقائق، أذهب فيها، فأرى.. أرى...

«قاطعته بغضب:

- آه، أنت تسخر منّي؟ إنّك لا تستطيع الدّخول، ما دام المفتاح معي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لم يعد لديه ما يضيفه.

«قال: - حسناً يا سيّدي سأريك الطّريق.

- أرني السّلالم، ودعني وحدي. سأبلغ الغرفة دونما مساعدةٍ منك.

- لكن يا سيّدي...

«وهذه المّرة عيل صبري وانفجرتُ:

- الآن، سوف تصمتُ، أليس كذلك؟ وإلا رأيت منّي ما يسوؤك.

«أزحته بعنفٍ من طريقي، وولجت المنزل.

«عبرت المطبخَ بدايةً، ثمّ حجرتين صغيرتين كان يقيم فيهما الرّجل مع زوجته. ثمّ اخترقت ردهةً واسعةً، وصعدت الدّرج، فعرفت الباب الذي أشار لي به صديقي.

«فتحته دونما صعوبةٍ ودخلت.

« كانت غرفة معتمة حتّى أنّي في البداية لم أتبيّن فيها شيئاً. توقّفت وقد سيطرت عليّ تلك الرّائحة العطنة والعفنة التي تميّز الغرف المهجورة والمقفلة، رائحة الغرف الميتة. ثمّ ما لبثت عيناي أن تعوّدتا شيئاً فشيئاً على العتمة، فتبيّنت غرفةً فسيحةً في حالٍ من الفوضى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبها سرير بلا ملاءات، لكن ما تزال عليه المرتبة والوسائد التي كانت إحداها تحمل أثراً عميقاً لضغط ذراعٍ أو رأسٍ، كأنّما استعملها أحدهم قبل قليل.

«كانت المقاعد تبدو مكركبة. ولاحظتُ أنّ باباً، لابدّ أنّه باب الدولاب، قد ظلّ مواراباً.

«قصدت النّافذة أوّلاً أفتحُها التماساً للنّور. لكنّ دواليبها كانت في حالٍ من الصّدأ بحيث ما استطعت لها زحزحةً.

«حتّى أنّي حاولت أن أكسرها بسيفي، فما استطعت. وبما أنّي كنت قد أُنهكت من جهودي العبثية تلك، وعينيّ قد تعوّدتا الظّلمة كلّ التعوّد، فقد آيست من النّظر أوضحَ، وقصدتُ الخزنة.

«جلست على مقعدٍ، وانحنيت على المكتب، ثمّ فتحت الدّرج المعلوم.

كان مملوءاً عن آخره. وكان مطلوبي ثلاثَ حزمٍ، أعرف كيف أتبيّنها، فشرعت أبحث عنها.

«كنت أفتح عينيّ وسعَهُما لأتمكّن من قراءة المكتوب على الرّزم، وإذا بي أخال نفسي قد سمعت أو بالأحرى شعرت بخفيف وراء ظهري. لم أعر الأمر انتباها، إذ حسبتُه تيار هواءٍ حرّك قماشاً. لكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد برهةٍ من زمن، حدثت حركة أخرى، تكاد لا تبين، فرجّفَت جلدي بقشعريرة خفيفة مزعجة. كان من البلاهة أن يتأثّر المرء بذلك، وإن تأثّراً ضئيلاً، حتّى أنّني لم أشأ أن أستدير احتراماً لنفسي. كنت قد وجدت الحزمة الثانية التي تلزمني؛ ولمّا وقعت على الثالثة، سمعت لصق كتفي زفرةً عظيمةً مرهقة، قفزتُ لها بنحو مترين، قفزةً مجنونةً. وفي غمرة هياجي، استدرتُ ويدي على قبضة سيفي، والحقّ يقالُ لو لم أتلمّس سيفي في غمده، لولّيت الفرارَ مثل جبانٍ.

«امرأةٌ طويلةٌ ترتدي البياضَ، كانت تنظر إليّ واقفةً خلف المقعد الذي كنت أجلس عليه ثانيةً قبل ذلك.

«ارتعدت فرائصي حتّى كدت أسقط إلى الخلف! أوّاه! لا أحد يستطيع أن يفهم مثل هذا الخوف الرهيب، ما لم يَخبِره بنفسه. إنّ النّفس تنعصرُ؛ ينعدم الإحساس بالقلب؛ يصير الجسد بأكمله رخواً كأنّه منشفة، كأنّما كياننا بأكمله يتقوّض.

Telegram:@mbooks90

«لست أومن بالأشباح؛ لكن! انسحقتُ تحت الخوف الشّنيع من الأموات؛ وتألّمت، أوه! تألّمت في لحظاتٍ أكثر ممّا تألّمت بقيّة حياتي، تألّمت من الخوف الهائل الذي تخلّفه فينا التّجارب التي تتجاوز الطّبيعة.

«ولو أنّها لم تكلّمني، لربّما متُّ! لكنّها نطقت، نطقت بصوت عذبٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وموجعٍ تهتزّ له الأعصاب. ولا أجرؤ على القول إنّني قد تمالكت نفسي واستعدت اتّزان عقلي. كلاّ. لقد تهت حتّى ما عدت أدرك ما أصنعه؛ بيد أنّ ذاك الكبرياء الجوّانيّ الذي يميّزني، وأيضاً شيئاً من غطرسة المهنة، جعلاني أحفظ، على الرّغم من نفسي، مظهراً لائقاً. انتصبت في موضعي، لأجلي ولأجلها هي أيضاً، امرأةً كانت أم طيفاً. وقد فكّرت في هذا لاحقاً، إذ أؤكّد لكم أنّني في اللّحظة التي تجلّت ليَ فيها، لم يخطر ببالي شيء. كنت مرعوباً.

قالت: - أوه! يا سيّدي، هل تستطيع أن تسديَ إليّ معروفاً عظيماً!

«أردتُ أن أجيبَها، لكنّ لساني عيَّ النّطقَ. ومن حنجرتي خرجت همهمةٌ مبهمة.

«استأنفَت هي الكلامَ:

- هل توافق؟ إنّك تستطيع أن تنقذني، أن تشفيني. لشدّ ما أتألّم. إنّي أتألّم، أوه! أتألّم!

«ثمّ جلسَت بهدوءٍ على مقعدي. أخذت تنظر إليّ:

- هل توافق؟

أجبتها موافقاً بإيماءة من رأسي، إذ كان صوتي ما يزال مشلولاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذّاك مدّت إليّ مشطاً من عظمٍ، وهمست:

«- مشّط شعري، أوه! مشّط شعري؛ كذلك ستشفيني؛ ينبغي أن يمشّط شعري أحد. اُنظر إلى رأسي... لشدّ ما أتألّم؛ لشدّ ما يؤلمني شعري!

«كان شعرها المسرّح، شديد الطّول والسّواد، وبدا لي أنّه ينسدل من فوق ظهر المقعد حتّى يلامس الأرض.

«لم فعلتُ ما فعلتُه؟ لم أخذت راجفاً منها المشط، ولمَ أخذت في يديّ شعرها الذي خلّف في جلدي برودة مرعبةً كأنّما أداعب ثعابينَ؟ لست أدري.

«بقي الإحساس في أصابعي، وما زلت أرتعد كلّما فكّرت فيه.

«مشّطتها. لا أدري كيف تحكّمت في ذاك الشّعر الجليديّ. كنتُ ألويه، أعقده وأفكّه؛ أجدله كما يُجدل عرف حصانٍ. وكانت تتنهّد، تشرئبُّ برأسها، وتبدو سعيدةً.

ثمّ فجأةً قالت: «شكراً!» وانتزعت من يدي المشط، ثمّ فرّت من الباب الذي كنت قد لاحظتُ أنّه كان مواربا.

«وإذ بقيت وحدي، اجتاحني للحظات ذاك الاضطرابُ المرعب الذي يعقب استيقاظنا من كوابيس. ثمّ ما لبثت أن استعدت وعيي؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هرعت إلى النّافذة، فكسرت مصراعيها بضربةٍ غاضبة.

«دلف منها دفقُ نهارٍ. انطلقت صوب الباب الذي فرّ عبره الكائن. فألفيته مغلقاً متصلّباً.

«وإذّاك اجتاحتني حمّى الهرب، حالةٌ من الذّعر، الذّعر الفعليّ الذي نشعر به في المعارك. لقمت سريعاً الحزمَ الثلاثة من فوق المكتب؛ وقطعت الغرفة ركضاً، قفزت درجات السّلم أربعاً أربعاً، وألفيت نفسي في الخارج من غير أن أعلم أيّ طريق سلكت. لمحت حصاني على بعد عشر خطواتٍ منّي، فقفزت إلى ظهره وانطلقت خبباً.

«لم أتوقف حتّى بلغت رُوان، وصرت أمام منزلي. وهناك، بعد أن سلّمت الجنديّ-الوصيف (19) لجام الحصان، لذت بغرفتي وغلّقت على نفسي كي أفكّر.

«ولساعةٍ ظللتُ في ضيقٍ أتساءل عمّا إذا لم أكن قد وقعت ضحيّة هلوسة. لا ريب في أنّي قد وقعت فريسة اضطرابٍ من تلك الاضطرابات العصبيّة غير المفهومة، أو هذيانٍ من هذيانات العقل التي تختلق المعجزات، والتي منها يستمدّ «الفوق-طبيعيّ» قوّته.

«وكنت على وشك أن أظنّ أنّي شهدت تهيّؤاً، أو أنّ حواسي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خدعتني. لكنّي دنوت من النّافذة، وإذا بعينيّ تقعان صدفةً على صدري. كانت سترتي مليئةً بشعرٍ نسائيٍّ طويل، التفّ حول أزراري!

«أمسكت بها شعرةً شعرةً، وألقيت بها إلى الخارج ويداي ترتعدان.

«ثمّ ناديت الجنديّ الوصيف. كنت أحسّ بنفسي في حالٍ من الاضطراب والانفعال، بحيث لم يكن ممكناً أن أذهب عند صديقي في اليوم نفسه. ثمّ إنّي كنت أريد أن أفكّر برويّة في ما ينبغي عليّ قوله له.

«أرسلت إلى صديقي بالرّسائل، وأعاد إليّ مع الجنديّ وصل استلامٍ. وقد ألحّ في السّؤال عنّي، فقيل له إنّي مريض، إنّي قد أصبت بضربة شمس، أو علّة أخرى. وقد أبدى قلقه.

«وفي اليوم التّالي قصدته، ما إن طلع الفجر، عازماً على أن أخبره الحقيقة. كان قد خرج في اللّيلة السّابقة ولم يعد إلى بيته.

«عدتُ خلال النّهار، ولم يكن قد عاد بعد. انتظرته أسبوعاً. وما ظهر له أثرٌ. فأعلمت بغيابه السّلطة. بحثوا عنه في كلّ مكانٍ فلم يعثروا على أثر لمروره أو إقامته.

«تفقّدت الشّرطة القصر المهجور بعنايةٍ، فلم تلفِ فيه ما يدعو إلى الرّيبة.

«لا شيء يدلّ على أنّ ثمّة امرأةً تختبئ فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لم يفض التّحقيق إلى نتيجةٍ، فتوقّفَت الأبحاثُ.

«ومنذ ستٍّ وخمسين سنةً لم يصلني خبر. لا علم لي بأكثر ممّا قلته.

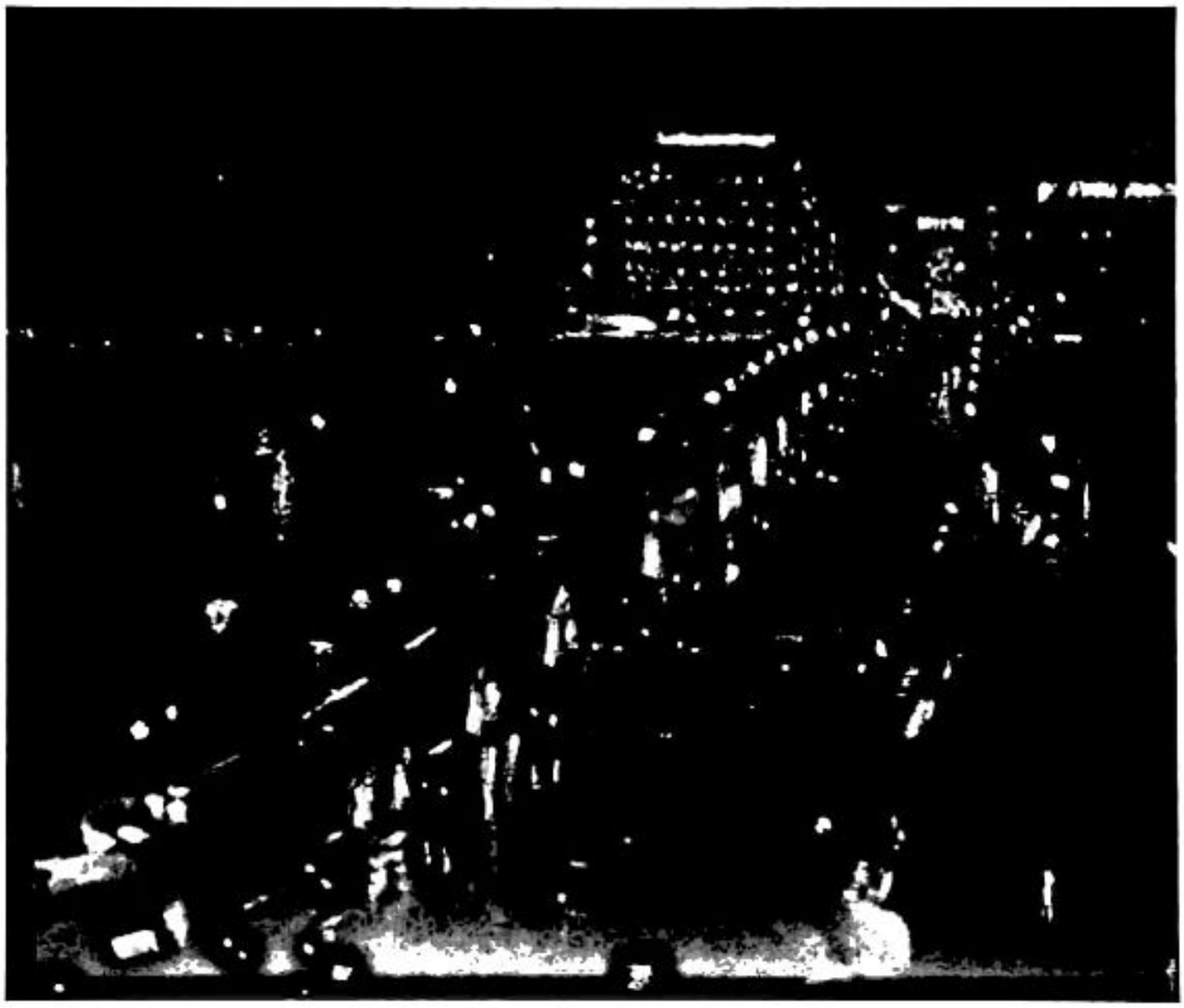

ألبير ماركيه، جسر نوف ليلاً، ١٩٤٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللّيل (20)

أهيم بحبّ اللّيل. أحبّه كما قد يحبّ المرء بلده أو عشيقته، حباً فطرياً، عميقاً، لا يتزحزح. أحبّه بكامل حواسي، بعينيّ اللّتين تنظران إليه، وشمّي الذي يستنشقه، وأذنيّ اللتين تسمعان صمتَه، بكامل جلدي الذي تداعبه الظّلمات. إنّ القبّرات تغنّي تحت الشّمس، في الهواء الأزرق، في الهواء الدّافئ، في هواء الأصباح المشرقة الخفيف. أمّا البوم فيفرّ في اللّيل، بقعةً سوداء تعبر الفضاء الأسود، متهلّلاً نشوانَ يطلق صيحته المفزعة النّابضة بالحياة.

النّهار يتعبني ويُسئمني. إنّه قاسٍ وضاجٌّ. أستيقظ بمشقّة، أرتدي ملابسي بفتورٍ، وأخرج بأسفٍ، وكلّ حركةٍ، كلّ إيماءة، كلّ كلمة، كلّ فكرة تتعبني، وكأنّما أرفع ثقلاً ساحقاً.

لكن حين تجنح الشّمس إلى الغروب، يجتاحني فرحٌ مُربكٌ، فرحٌ ينبض به جسدي كلّه. أتيقّظُ، أنتعش. وبقدر ما يتعاظمُ الظلُّ، يتعاظم فيّ الإحساس بأنّي شخصٌ آخرُ، شخصٌ أكثر فتوّةً وقوّةً، وأشدّ تيقّظاً وسعادة. أتابع الظلّ العذب الهابط من السّماء، وهو يزداد كثافةً: يغمر المدينة، مثل موجةٍ يتعذّر الإمساك بها أو اختراقها، تُخفي، تمسح، تدمّرُ الألوانَ والأشكالَ، تطوّق المنازلَ والكائناتِ، والصّروحَ بلمستها التي تكاد لا تدرك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذّاك تتملّكني الرّغبة في أن أصرخ من اللّذة، مثل البوم، وأن أركض على الأسطح كالقطط؛ وتشتعل في عروقي رغبةُ حبٍّ طائشةٌ لا تقهر.

أمشي، أتمشّى، حيناً بين الضواحي المعتمة، وطوراً في الغابات المتاخمة لباريس، حيث أسمعُ دبيب إخوتي الوحوش وإخواني صيّادي اللّيل (21).

إنّ ما نحتدُّ في حبّه، لا بدّ أن ينتهي إلى قتلنا. لكن، كيف أفسّر ما يقع لي؟ لا أدري، ما عدت أدري، أعرف فقط أنّ الأمر وقع. وهذا كلّ شيء.

أقول إذن، أمس -هل كان أمس؟- أجل، بلا شكّ، اللهمّ إلا إن كان قد حدث قبل ذلك، في يومٍ آخر، شهر آخر، سنة أخرى، - لا أدري. لا بدّ أن يكون أمس، ما دام النّهار لم يطلع، والشّمسُ لم تشرق بعد. لكن منذ متى واللّيل مستمرٌ؟ منذ متى؟.. من يستطيع أن يجيبنا؟ من بوسعه أن يعرف؟

أمس إذن، خرجتُ على دأبي كلّ مساءٍ، بعد أن تناولت عشائي. كان الجوّ جميلاً جداً، شديد العذوبة والدّفء. هابطاً شطرَ الشّوارع، كنتُ أتأمّل فوق رأسي نهرَ النّجوم الأسودَ، تقطعه في عرض السّماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسقف الشّارع الذي يمضي متلوّياً، فيتماوج مع التوائه الجدولُ السّماويُ المليء بالأجرام كأنّه نهرٌ فعليّ.

كان كلّ شيء صافياً في الجوّ الرّائق، بدءاً من الكواكب وحتّى مصابيح الغاز. نيرانٌ كثيرةٌ تومض هناك في الأعلى، وهنا في المدينة تبدو الظّلمات لامعةً. إنّ اللّيالي البرّاقة أشدّ بهجةً من النّهارات المشمسة.

في الشّارع، كانت المقاهي مضيئةً مبهرة؛ كان الجميع يضحكون، ويقصفون، ويشربون. دخلت المسرح للحظاتٍ، أي مسرح؟ ما عدت أذكر. كان المسرح مضاءً لدرجة أنّني اغتممتُ، فخرجت منه بقلبٍ كئيب بعض الشّيء، بسبب صدمة النّور الصادر من الشّرفات المذهّبة، والبريق الزائف لثريا الكرستال الهائلة، ولمعان الحاجز المعدنيّ، بسبب الحزن النّابع من هذا الضياء الزّائف الخامّ. قصدت شارع الشّانزيليزيه حيث مقاهي-العروض تبدو كحرائق وسط أوراق الشّجر. أشجار الكستناء التي يفركها الضوء الأصفر كانت تبدو كأنّها مرسومة، جوٌّ شجريّ فوسفوريّ. والمصابيح الكهربائية، الشّبيهة بأقمار وهّاجة شاحبة، بأحجار قمرية نزلت من السّماء، بلآلئ شنيعة، حيّة؛ في ضياء المصابيح الكهربائية المتلألئ، الغامض والملكيّ، تبدو باهتةً مصابيحُ الغاز، الغاز القبيح المتّسخ، وشرائط الزّجاج الملوّنة.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توقّفتُ تحت قوس النّصر أتأمّل الشّارع، الشّارع الطّويل الجميل المضاء بالنّجوم، الممتدّ صوب باريس بين صفّين من لهيب، وأتأمّل النّجومَ! النّجوم في الأعلى، النّجوم المجهولة الملقى بها عشوائياً في الفضاء الشّاسع، حيث ترسمُ أشكالاً عجيبةً لشدَّ ما تدعو إلى الحلم والتفكّر.

دخلت غابة بولوني، وبقيت فيها طويلاً، طويلاً. تملّكني إحساسٌ فريدٌ، انفعالٌ قويّ غير متوقّع، هياجٌ في فكري يتاخمُ الجنونَ.

مشيتُ طويلاً، طويلاً، ثمّ عدتُ أدراجي.

كم كانت السّاعةُ، حين مررت من تحت قوس النّصر؟ لا أدري. كانت المدينة هاجعةً، وسحائبُ، سحائبُ سوداء هائلةٌ تتمطّى رويداً في صفحة السّماء.

لأوّل مرّة أشعر أنّ شيئاً ما غريباً سيحدث، شيئاً جديداً. بدا لي أنّ الطّقس يبرد، أنّ الجوّ يثقل، وأنّ اللّيل، محبوبي اللّيل، يصير ثقيلاً على قلبي. صار الشّارع الآن قفراً. فقط رقيبان من شرطة المدينة يتجوّلان قرب موقف عربات الأجرة، وعلى الرّصيف الذي بالكاد تضيئه مصابيح غاز تبدو كالمحتضرة، يسير موكبٌ من عربات الخضر قاصدةً سوق هال. كانت تسير الهوينى محمّلةً بالجزر واللّفت والملفوف. وكان سُوّاقُها نواماً، لا يُرَونَ؛ والخيول تمشي بخطوٍ رتيب، تتبع العربة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تسبقها، من دون أن تحدث ضجّةً على البلاط الخشب. وكلّما مرّ الموكب بجانب ضوء من أضواء الرّصيف، يومض الجزَر بالأحمر، واللّفت بالأبيض، والملفوف بالأخضر؛ وتمرُّ واحدةً بعد أخرى العرباتُ، الحمراء حمرة النّار، البيضاء بياض الفضّة، الخضراء خضرة الزمرّد. تبعتها، ثمّ انعطفتُ عبر الشّارع الملكيّ وعدتُ إلى الجادة. ثمّ انعدم النّاسُ، لا مقاهيَ منيرة، فقط بعض المتأخّرين يحثّون خطاهم. لم يسبق لي أبداً أن رأيت باريس ميّتةً بهذا القدر، قفراً لهذه الدّرجة. أخرجت ساعتي من جيبي، كانت تشير إلى الثانية.

قوّةٌ ما كانت تدفعني، حاجةٌ إلى المشي. سرت إذن حتّى الباستيل. وهناك انتبهت إلى أنّني لم أشهد قطُّ ليلة بهذا القدر من الحلكة، إذ لم أكن حتّى أتبيّن مسلّة يوليو/تمّوز، حتّى أنّ الجنيّ الذهبيّ فوقها كان ضائعاً في العتمة المنيعة. قبّةٌ من سحابٍ، سميكةٌ سماكة الكون الشّاسع، أغرقت النّجومَ، وغدت تبدو كأنّها تنقضّ على الأرض لتدمّرها.

عدت أدراجي. لم يكن حولي إنسانٌ. غير أنّي لما بلغت ساحة شاتو-دو كاد أحد السّكارى أن يصطدم بي، ثم اختفى. سمعت للحظاتٍ وقع خطواته المضطربة الثّقيلة. ظللت أسير. أعلى ضاحية مونمارتر مرّت عربة، نازلة صوب نهر السّين. ناديتها. لم يجب الحوذيّ ندائيَ. امرأة تحوم في زقاق دروُو: «سيّدي، مهلاً» حثثت الخطى لأتجنّب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يدها المبسوطة إليّ. ثمّ لا شيء. قبالة مسرح فودفيل جامعُ خردة يقلّبُ. سألتُه: «كم السّاعة يا صاح؟».

غمغم: «وما أدراني! ليس عندي ساعة».

إذّاك انتبهت فجأة إلى أنّ مصابيح الغاز قد أُطفئت. أعرف أنّها تطفأ في هذا الموسم باكراً، قبيل الفجر، بغية اقتصاد الطّاقة؛ لكنّ النّهار كان ما يزال بعيداً، بعيداً جداً.

«هيا إلى سوق هال إذن، فهناك على الأقل سأجد الحياةَ».

انطلقت في طريقي، لكنّي ما كنت أرى حتّى النّزر الكافي لأقود نفسي. أخذت أتقدّم ببطء، مثلما يفعل المرء في الغابة، متعرّفاً الشّوارع بعدّها.

قبالة مصرف ليون نبح كلبٌ. لففت من شارع غرامون، فتهت؛ همتُ، ثمّ عرفت البورصة من سياج الحديد المحيط بها. كانت باريس بأكملها هاجعةً، تغطّ في سباتٍ عميقٍ، مرعب. وفي البعيد كانت ثمّة عربةٌ تجوب الطّريق، عربةٌ وحيدةٌ، قد تكون هي العربة التي مرّت أمامي منذ قليل. حاولت اللّحاق بها، متسمّعاً ضجيج عجلاتها، عبر الأزقّة العزلاء السوداء، السّوداء، السوداء سواد الموت.

تهت مجدّداً. أين كنت؟ أيّ فعلٍ أحمق هو إطفاءُ مصابيح الغاز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باكراً! لا أحد من السّابلة، لا أحد من المتأخّرين، لا أحد من الهائمين، لا مواء قطّ عاشق. لا شيء.

أين رقباء شرطة المدينة؟ قلت لنفسي: «سوف أصيح، وسيأتون». صحت. لم يجبني أحد.

صحت بصوت أعلى. تبدّد صوتي، بلا صدى، واهناً، مخنوقاً، مسحوقاً بالليّل، بهذا الليّل المنيع.

صرخت: «النجدة! النجدة! النجدة!».

لم تلقَ صرختي اليائسة مجيباً. ما السّاعة الآن؟ أخرجت ساعتي، لكنّي عدمت أعواد الثقاب لأراها. أخذت أنصت إلى الدقّات الخفيفة للآلة الميكانيكية الصّغيرة بفرح غريبٍ وعجيب. كانت تبدو حيّة. صرت أقلّ وحدةً. يا له من لغز! عدت إلى المشي كأعمى، أضرب بعصاي الجدرانَ، وفي كلّ مرّةٍ أرفع عينيّ إلى السّماء، راجياً أن يكشف الصّبح عن وجهه؛ لكنّ الفضاء كان أسود، أسود تماماً، أشدّ سواداً من المدينة.

كم السّاعة الآن؟ يخيّل إليّ أنّني أمشي منذ دهورٍ، إذ إنّ ركبتيّ صارتا تنثنيان تحت ثقلي، وصدري يلهث، وأعاني جوعاً فظيعاً.

قرّرت أن أقرع جرس أوّل بابٍ أصادفه. سحبت المقبض النّحاسيّ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرنّ الجرس داخل البيت؛ رنّ رنيناً غريباً كأنّما يتردّد في منزلٍ فارغٍ.

انتظرت، ولم يجب أحد، لم يفتح الباب أحد. قرعت الجرس مرّةً أخرى؛ انتظرت مرّةً أخرى، - لا شيء.

تملّكني الرّعب! هرعت إلى المنزل التالي، وقرعت الجرس عشرين مرّةً متتالية في الرّدهة المظلمة حيث يفترض أنّ البوّاب نائم. لكنّه لم يستيقظ، -فذهبت أبعدَ، ساحباً الأقفال أو الحلقات بكلّ قوايَ، ضارباً بقدميّ وعصايَ وقبضتاي الأبواب المقفلة العنيدة.

وفجأة انتبهت إلى أنّني قد بلغت سوق هال. كان خالياً، لا صوت، لا حركة، لا عربة، لا إنسان، لا حزمة خضرٍ أو أزهار. - كان قفراً، جامداً، مهجوراً، ميتاً!

تملّكني رعبٌ فظيع. ما الذي يحدث؟

انطلقت مجدّداً. لكن، كم السّاعة؟ كم السّاعة؟ من يخبرني كم السّاعة؟ لا ساعة تدقّ في الأبراج أو الصّروح. فكّرت: «سوف أفتح زجاج ساعتي، وأتحسّس عقاربها بأصابعي.» سحبت ساعتي... ما عادت تدقّ... لقد توقّفت. لا شيء، لا شيء، لا حركة في المدينة، لا شعاع ضوء، لا دبدبة صوتٍ في الهواء. لا شيء! لا شيء! ولا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتّى دوران عجلات العربة في البعيد - لا شيء!

كنت على الرّصيف، وبرودة صقيعيّة تصعد من النّهر.

أما زال نهر السّين يجري؟

أردت أن أتأكّد، وجدت الدّرج، نزلت... لم أكن أسمع هدير التيّار تحت أقواس الجسر... درجاتٌ أخرى... ورملٌ... فطينٌ... ثمّ ماء... غطست ذراعي فيه... كان النّهر يجري... النّهر يجري... بارداً... بارداً... بارداً... شبه متجمّد... شبه جافّ... شبه ميت.

وكنت أشعر أنّي لن أملك القوّة للصّعود... وأنّني سأموت هنا... أنا أيضاً، من الجوع - ومن التّعب - ومن البرد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غلاف مجموعة ضوء القمر، طبعة ١٨٨٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضوء القمر(22)

كان يحمل حقاً اسمه الحربيّ: الأب مارينيان(23). كان راهباً طويلَ الجسمِ ناحلَهُ، متعصّباً، متوتّر النّفس على الدوام، لكن مستقيماً. معتقداته ثابتة لا تتأرجح. وكان يخال نفسه يعرف ربَّه حقّ المعرفة، يدرك مقاصده وأقداره وإرادته.

وحين كان يتجوّل أحياناً في ممشى بيته الرّيفيّ الصّغير، كانت تقدح في ذهنه شرارةُ سؤال: «لِمَ خلق الربُّ هذا؟» ثمّ يقلّب في ذهنه السّؤال مثابراً، واضعاً نفسه موضع الربّ، وتقريباً دائماً ما ينتهي إلى جوابٍ. ليس هو من كان ليصرخ في حماسة التواضع الورع «ربِّ، لا أحد يدرك مقاصدك»، وإنّما كان يردّد: «أنا خادم الربّ، وعليّ أن أعرف مقاصد تدابيره، أو أن أخمّنها إن كنت أجهلها». كلّ ما في الطّبيعة كان يبدو له قد خُلق ورتّب بمنطقٍ مطلقٍ وعجيب. دائماً ما تتساوى في الميزان كفّتا الـ«لماذا؟» والـ«لأنّ». وُجدت الأفُر لتنعم باستيقاظات سعيدة، والنّهاراتُ لينضج الزرع، والأمطار لتسقيه، والأماسي ليتهيّأ النّوم، واللّيالي الحالكة للنّوم. الفصول الأربعة توافق غاية الموافقة حاجات الزّراعة؛ وما كان ليخطر ببال الرّاهب أبداً أنّ الطبيعة لا مقاصد لها، وأنّ كلّ ما يدبّ في العالم إنّما انصاع للحتميات القاسية التي تفرضها العصور والمناخات والمادة. غير أنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يكره المرأة، يكرهها كرهًا غير واعٍ، يحتقرها بالسّليقة. كثيرا ما كان يردّد كلمة المسيح: «ما لي ولك يا امرأة؟»، ثمّ يضيف: «يقال إنّ الربّ نفسه لم يرض عن خلقه المرأة». كانت المرأة في نظره ذاك الطفل الدّنس اثنتي عشرة مرّة، كما يقول الشّاعر(24). هي أصل الغواية، من بسببه زلّ أوّلُ الرّجال، ولم تزل تواصل عملَها الملعون، هي الكائن الضّعيف، الخطير، المقلق بشكل غامض. وأشدَّ من بغضه جسدَهُنّ المغوي، كان يبغض روحهنّ الولهانة. كثيراً ما شعر برقّتهنّ تجاهه، وعلى الرّغم من أنّه كان يعلم نفسه حصيناً، إلاّ أنّه كان يستاء من تلك الرّغبة في الحبّ التي تعتمل دائماً فيهنّ. إنّ الربّ في نظره لم يخلق المرأة إلاّ ابتلاءً للرّجل وتجربةً. لذا لا ينبغي الاقتراب منها إلا بحذرٍ، وبنفس القدر من الاحتراس الذي يقترب المرء به من الشّراك. فالحال أنّ المرأة أشبه شيءٍ بالفخ، إذ تقصد الرّجل بذراعيها المبسوطتين وشفتيها المفتوحتين.

لم يكن يتسامح إلاّ مع الرّاهبات اللّواتي يجردهنّ نذرهنّ من السّلاح، على أنه كان يعاملهنّ بقسوة إذ كان يستشعر تلك الرّقّة الأبدية ما تزال حيّة في قلوبهنّ المغلولة، تلك الرّقة التي تقصده وإن كان راهباً. كان يستشعرها في نظراتهنّ المتقطّرة ورعاً، أكثر من نظرة الرهبان نفسها، في زخم حبّهنّ المسيحَ، الحبّ الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسيئهنّ من حيث هو حبُّ امرأةٍ، حبٌّ شهوانيّ، تلك الرّقة الملعونة كان يحسّ بها حتّى في طاعتهنّ، في عذوبة أصواتهنّ وهنّ يكلّمنه، في عيونهنّ الخفيضة، وفي انهمار دموعهنّ حين يقسو عليهنّ بالكلام. فكان يهزّ رداءه وهو يغادر من باب الدّير، ويحثّ الخطى كأنّما يفرّ من خطر.

وكانت له ابنة أختٍ تعيش وأمّها في منزلٍ مجاور. وكان يجاهد في سبيل إلحاقها بالرّهبنة. وكانت هي جميلةً، طائشةً وساخرةً. حين يتلو القسّ القسم كانت هي تضحك؛ وحين يغضب منها، كانت تقبّله بعنفٍ، وتضمّه إلى صدرها، بينما يكافح هو رغماً عنه في سبيل التّخلّص من ذاك الحضن الذي يذيقه فرحاً لذيذاً، موقظاً في نفسه شعور الأبوّة الغافيَ في قرارة كلّ رجلٍ.

كثيراً ما كان يحدّثها عن الربّ، ربّه، بينما يسايرها عبر الدّروب بين الحقول. ولم تكن هي تنصت إليه البتّة، وإنّما تتأمّل السّماء والعشب والزّهور، بفرحٍ حيّ يُستشفُّ في عينيها. وأحياناً، كانت تنطلق في إثر كائنٍ يطيرُ، ثمّ تقفل ممسكةً به وهي تصيح: «انظُر يا خالي، ما أجمله، أودّ لو أقبّله» وكانت تلك الرّغبة في «تقبيل ذبابةٍ»، أو زهرة ليلك، تقلق الرّاهبَ، تثيره، تبلبله، إذ تضعه مرّة أخرى في مواجهة تلك الرّقة، غير القابلة للاجتثاث، التي تعتمل في قلب كلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنثى.

ثمّ ها ذات يومٍ، زوجةُ القندلفت التي كانت تعتني بترتيب منزل القسّ، تُخبره بأنّ لابنة أخته عشيقاً.

تملّكه شعورٌ مرعبٍ، وظلّ مختنقاً، ووجهه مغمورٌ بالصّابون، إذ كان في تلك اللّحظة يحلق ذقنه.

وحين استعاد القدرة على التفكير والكلام، صاح: «كلاّ، ليس صحيحاً، إنّك كاذبة يا ميلاني!» لكنّ الفلاّحة وضعت يدها على صدرها وقالت: «ليعاقبني الربّ إن كذبتُ يا سيّدي الخوريّ. أقول لك إنّها توافيه كلّ ليلةٍ، ما إن تنام أختك. فيلتقيان عند ضفّة النّهر، ما عليك إلا أن تذهب، بين العاشرة مساءً ومنتصف اللّيل، فترى بنفسك».

كفّ عن حلق ذقنه، وجعل يمشي بحدّة، على دأب ما يفعله كلّما اشتدّ به التّفكير. وحين أراد استكمال حلاقة ذقنه، جرح وجهه ثلاث مرّاتٍ في المنطقة بين أنفه وأذنه.

ظلّ اليوم كلّه صامتاً، يقتله الغيظ والحنق. إلى غضب الرّاهب العاجز عن قهر الحبّ، انضافَ حنقُ الأبِ الكفيل، الوصيّ الذي خدعته وتلاعبت به طفلةٌ، تملكّه ذاك الاختناق الذي يتملّك الأبوين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللّذين تعلن عليهما ابنتهما أنّها اختارت زوجاً، من دون مشورتهما وضداً على إرادتهما.

بعد عشائه، حاول أن يقرأ قليلاً، لكنّه لم يستطع؛ أخذ يغرق في اليأس أكثر فأكثر. وحين دقّت السّاعة العاشرة، أخذ عصاه، وهي عصاً جميلةٌ من خشب السنديان كان يتوسّل بها دائماً في سيره اللّيليّ كلّما سعى في عيادةِ مريضٍ. وتأمّل باسماً الهراوة الغليظة وقد أخذ يلوّح بها في حركاتٍ متوعّدة في كفّه الصلبة، كفّ القرويّ. ثمّ بغتةً، رفعها وهوى بها على مقعدٍ فانهار مسندُه وسقط على الأرضية. ثمّ فتح بابه متأهّباً للخروج؛ لكنّه توقّف عند العتبة مشدوهاً بضوء قمرٍ مبهرٍ لا يكاد يُرى له مثيلٌ. وبما أنّه كان قد حُبي نفساً رفيعةً، نفساً من تلك الأنفس التي يفترض أن يتميّز بها آباء الكنيسة، أولئك الشّعراء الحالمون، فقد شعر بنفسه وقد تخفّف وارتاح، متأثّراً بعظمة وبهاء اللّيل الشّاحب.

في حديقته الصّغيرة الغارقة في نورٍ عذبٍ، كانت الأشجار المثمرة، المصفوفة، ترسم بظلالها في الممشى أطرافَها الخشبية النّاحلة التي بالكاد تغطّيها الخضرة؛ بينما شجرة العسلة الهائلة، المتسلّقة جدار المنزل، تضوع بأنفاس طيّبة كالسكّر، ناشرةً في المساء الدّافئ الوضّاح ما يشبه روحاً عطِراً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جعلَ يتنفّسُ طويلاً، راشفاً الهواءَ كما يشربُ السّكارى النّبيذَ، وسار بخطى وئيدة، نشوانَ، مفتوناً، يكاد باله يخلو من ذِكر ابنة أخته.

وما إن صار بالبادية، حتّى توقّف يتأمّل كامل السّهل المغمور بهذا الشّعاع الرّؤوم، الغارق في هذه الفتنة العذبة الخدرة، فتنة اللّيالي الهادئة. وفي كلّ لحظة كانت العلاجيم تلقي في الفضاء بعزفها المعدني القصير، وعنادلُ تصدحُ جميعاً في البعيد بموسيقاها الطّويلة التي تُغرق المرءَ في حُلمٍ بلا فِكرٍ، موسيقى خفيفة وموقّعة، موسيقى خُلقت لتُعزف على شرف القبل، على شرف الغواية في ضوء القمر.

انطلق الرّاهب يسير، واهن القلب، من دون أن يعرف لذلك سبباً. كان يشعر كأنّما مسّه الضّعف، كأنّما أُنهك فجأةً؛ كانت تتملّكه رغبةٌ في أن يجلس، في أن يمكث هناك، أن يتأمّل ويتدبّرَ الربَّ في صنيعِه.

هناك، كان صفٌّ من أشجار الحور يمضي متلوياً، تابعاً انعراجات النّهر الصّغير. ضبابٌ رقيقٌ، بخارٌ أبيض تخترقُه أشعّة القمر، فتضفي عليه صبغةً فضيّةً برّاقةً، كان معلّقاً هناك فوق الضّفاف، مغلِّفاً المجرى المتعرّج بأكمله بما يشبه غلالةً من قطنٍ خفيفٍ شفيف.

توقّف الرّاهبُ مرّةً أخرى، وقد غزته حتّى أعماق نفسه رقّةٌ ما فتئت تتعاظمُ وتتعذّرُ مقاومتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمّ إنّ شَكّاً، قلقاً مبهماً، اجتاحَه، أحسّ في نفسه بانبثاق أحد تلك التّساؤلات التي كان يطرحها على نفسه أحياناً.

«لِمَ خلقَ الربُّ هذا؟» ما دام اللّيل قد جُعِلَ للسّبات، للاّوعي، للرّاحة، لنسيان كلّ شيء، لِمَ صيّره الرّبُ إذن أشدّ فتنةً من النّهار، أرقّ وأعذب من الأفجر والأماسي؟ ولِمَ هذا الجُرمُ البطيءُ الفاتنُ، الأشدّ شعريّةً من الشّمس، والذي يبدو أنّه قد نُذر، لفرط تكتّمه، لينيرَ الأشياء الأشدّ رهافةً وإلغازاً من أن يجلّيها نورُ النّهار، لِمَ هذا الجرمُ قد صار يكشف الظّلماتِ ويحوّلها شفيفةً؟

لِمَ أحذَقُ الطّيور الغرّيدة لا يرتاحُ الآنَ شأن غيره، ويمضي مترنّماً في الظلامِ المربك؟

لِمَ أُلقيَ على العالم نصفُ الحجابِ هذا؟ لِمَ هذه الوجيفُ في القلب، وهذا الانفعال في النّفس، وهذا الخدر في الجسد؟

لِمَ انكشافُ هذه الفتن التي لا يراها النّاسُ البتّة، إذ هم في فُرُشهم نوّامٌ؟ لمن خُلق هذا المشهد المهيبُ، هذه الوفرةُ من الشِّعر التي تلقي بها السّماء على الأرض؟ وَعيَّ الرّاهبُ الفهمَ.

ثمّ ها هناكَ، على ضفّة المرج، تحت قبّة الأشجار المنقوعة في الضّباب البرّاق، ينبثقُ ظلاّنِ يمشيانِ جنباً إلى جنب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الرّجل أطولَ قامةً، فيطوّق عنق رفيقته، وبين الفينة والأخرى يقبّلُ جبينها. لقد بثّا الحياةَ فجأةً في هذا المنظر الجامد الذي يغلّفهما مثل إطارٍ إلهيّ خُلق لهما. كانا يبدوانِ معاً كائناً مفرداً، الكائنَ الذي له نُذر هذا اللّيلُ الهادئ الصّموت؛ وها هما يتّجهان صوبَ القسّ جواباً حيّاً، الجوابَ الذي يلقيه إليه ربُّه رداً على سؤاله.

ظلّ واقفاً، قلبه يخفقُ مزَلزَلاً؛ وخال نفسه شاهداً على أمرٍ من أمور الكتاب المقدّس، شأن غراميات راعوث وبوعز، شاهداً على تحقّق إرادة القدير في واحدٍ من تلك المناظرِ العظيمة التي تذكرها الكتبُ المقدّسة. وفي رأسه أخذت تتردّد آيات نشيد الأناشيد، صيحات الحماس، نداءات الأجساد، كلّ الشّعرية الحارقة التي تطبع تلك القصيدة المشتعلة عذوبةً.

وقال لنفسه: «لربّما خلق الربُّ هذه اللّيالي كي يغلّف بالكمال غرام النّاس».

ثمّ إنّه قد تنحّى عن طريق العاشقين اللذين واصلا سيرهما متعانقين. مع أنّ الفتاة كانت ابنة أخته، لكنّه كان يتساءل عمّا إذا كان باعتراضه سبيلهما سيعصي الربَّ. أو ليس الربُّ قد أباح الغرامَ، ما دام يلفّهُ ببهاءٍ مماثلٍ؟

ثمّ فرّ، تائهاً، يكاد يشعر بالخزي، كأنّما اقتحم معبداً حُرّمَ عليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخوله.

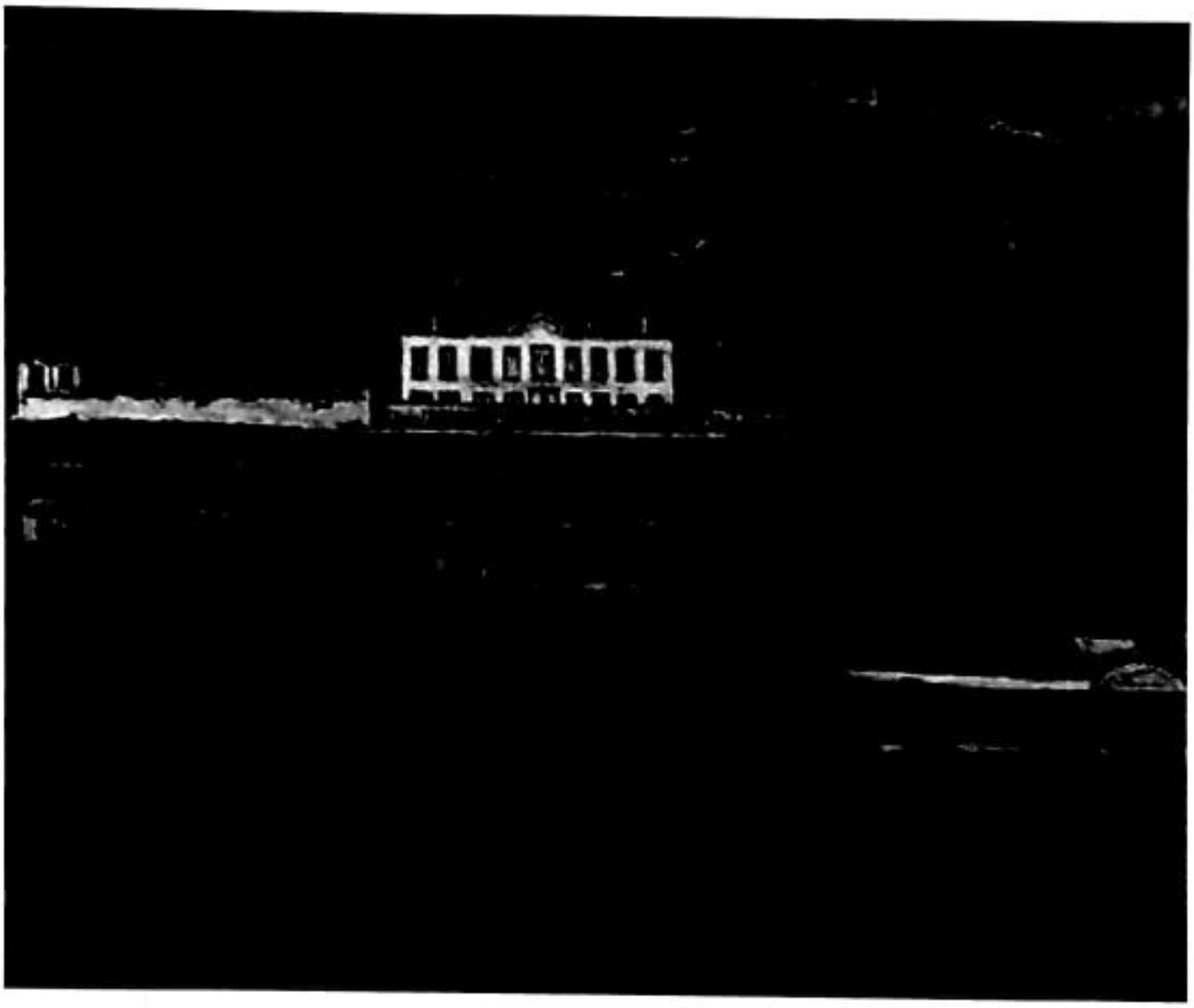

بيت فلوبير بكرواسيه

لوحة الفنان (رونيه تومسن)

---

(1) كان لكتاب تودورف «مدخل إلى الأدب الفانتاستيكي» اسهام حاسم في فهم هذا الأدب وتصنيف موضوعاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(2) نشر هذا النّص أوّل مرّة في المجموعة القصصية التي حملت اسمه «الهورلا»، ضمن منشورات Ollendorf، في السابع عشر من مايو ١٨٨٧. (الحواشي من وضع المُترجم، أفاد في بعضها من شُرّاح موباسان).

(3) يتطابق وصف الموقع تماماً مع العقار الذي كان يملكه غوستاف فلوبير بمنتجع كرواسيه، والذي ذكره موباسان في العديد من أعماله.

(4) الجُلجُل: الجرس الصّغير.

(5) ممارسة استشفائية كانت شائعةً في القرن التّاسع عشر، تقوم على الخضوع لحمامات ماءٍ باردة من أجل إعادة ضبط الدّورة الدّموية وإيقاع الأعضاء.

(6) الطّابع الملغّز لجبل سان ميشال جعله ذا حظوةٍ خاصّة بالنّسبة لموبسان، وقد ظهر أيضاً في حكاية «أسطورة جبل سان ميشال» التي نشرت سنة ١٨٨٢.

(7) الجون: الخليج الصّغير.

(8) الكمّير chimère، مخلوق ينتمي إلى الأساطير اليونانية، جسمه توليفة من الأسد والتّيس والأفعى، ويرمز إلى السّراب والوهم والأحلام المتعذّرة البلوغ، حتّى أنّ اسمه صار في بعض اللغات الأوروبية (والفرنسية إحداها) يدلّ على الخيالات والسّراب.

(9) كان موباسان ودوما الابن على علاقة وثيقة، والأرجح أنّ الأمر يتعلّق هنا بمسرحيّة دونيز التي عُرضت بالمسرح-الفرنسي (باريس) يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٨٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(10) فرانز-أنطون مِسمير: طبيب ألماني يعدّ من مؤسّسي اتّجاه خاصّ في الإيحاء والتّنويم المغناطسي يسمّى المسميرية، وقد كانت تجاربه حاسمة في تطوّر الطبّ النّفسي.

(11) يتعلّق الأمر بنوع هجينٍ من شجيرات الدّفلى تسمّى حرفياً: عملاق المعارك.

(12) الهورلا Le Horla، اشتقه موباسان من الكلمتين Hors (الخارج/ البرّاني...) وlà (هنا)، إشارة إلى أصل الكائن وطبيعته، ويظلّ هذا التفسير الأكثر إقناعاً لاختيار موباسان، علما أنّ تفاسير أخرى ألحقت الكلمة بأصول لغوية نورماندية أو غيرها. وتجدر الإشارة إلى أنّ الكلمة صارت تقريباً بمثابة اسم العلم الذي لا يتغيّر إلا تغييراً طفيفاً في باقي اللغات، فهو في الانجليزية The Horla وفي الاسبانية El Horla وفي البرتغالية O Horla وفي الألمانية Der Horla، وفي البولندية Horla، فكان على اللغة العربية أيضاً أن تنحو منحى باقي اللّغات وتحتفظ للكائن بالاسم الذي عمده به صاحبه.

Telegram:@mbooks90

(13) العتبة العلويّة.

(14) نشرها موباسان سنة في عدد ١٦ أكتوبر ١٨٨٦ من جريدة Gil Blas.

(15) حول الممارستَين العلاجيّتين، أنظر حواشي الصّيغة الأولى من الهورلا.

(16) كُتبت سنة ١٨٨٥، ونُشرت أوّل مرّةٍ في يوميّة Gil Blas، عدد ١٧ فبراير ١٨٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(17) القول لباسكال، يقصد به نسبية الحقائق قياساً إلى الذات التي تنظر إلى الأمور.

(18) نشرها أوّل مرّةٍ في مجلّة الغالي (لوغالوا) عدد ٤ أبريل ١٨٨٤، ثمّ أعاد نشرها السنة التالية في مجموعة ضوء القمر.

(19) جندي يتطوّع للخدمة المنزلية عند الضابط.

(20) نشرها أوّل مرّةٍ في يومية Gil Blas عدد ١٤ يونيو ١٨٨٧، ثمّ أعاد نشرها سنة ١٩٨٨ في الطّبعة الثانية المزيدة من مجموعة ضوء القمر.

(21) يقصد المؤلّف الصيّادين غير القانونيّين الذين يستعملون عادة وسائل تقليدية كالفخاخ.

(22) نشرها أوّل مرّةٍ في يومية جيل بلا عدد ١٩ أكتوبر ١٨٨٢، ثمّ أعاد نشرها سنة ١٩٨٣ ضمن المجموعة التي حملت نفس العنوان. علما بأنّ للمؤلّف قصّة أخرى مختلفة تحمل العنوان نفسه وقد نشرها في مجلة الغولوا عدد الفاتح من يوليو ١٨٨٢.

(23) يشير المؤلف إلى معركة مارينيانو التي جرت بالأراضي الإيطالية سنة ١٥١٥.

(24) يلمع المؤلّف إلى بيت الشّاعر ألفريد دو فيني: المرأة، ذاك الطفلُ العليل واثنتي عشرة مرّةً دنساً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

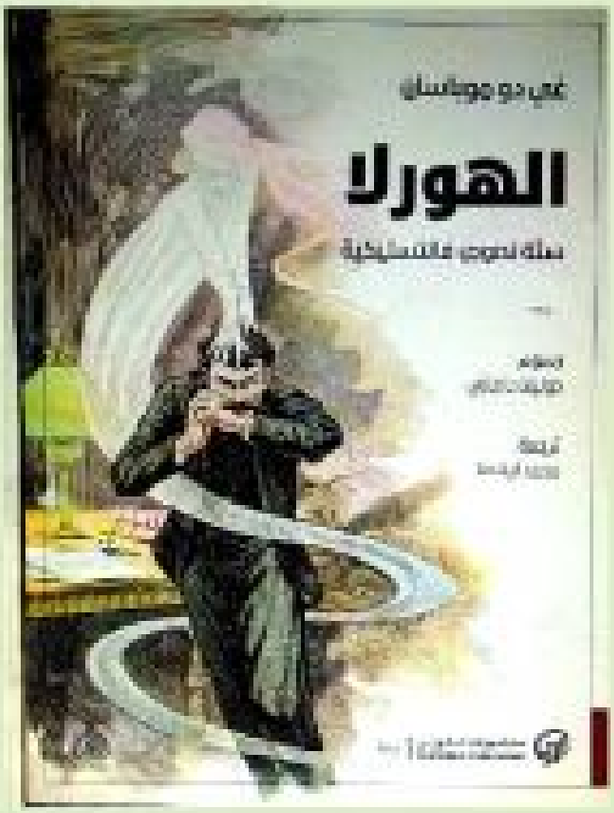

تم الرفع بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner